رمضان الأخير

بقلم

عزة مختار

قطر الندى

رمضان الأخير

تخلية، تحلية، تجلية

بقلم

عزة مختار

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٣١هـ - ٢٠١٠م

رقم الإيداع: ١٠٤٩٧/ ٢٠١٠

الترقيم الدولي:

977-6137-58-x

مركز السلام للتجهيز الفني
عبد الحميد عمر
٠١٠٦٩٦٢٦٤٧

للنشر والتوزيع

١ ش مسجد الحكمة – أرض اللواء – المهندسين
ت/ ٠١٠٦٠٩٩٥٣٨ - ٠٢٣٧٠٩٦٧٢١
Email: Katrelnada2@yahoo.com

مقدمـــة

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستهديه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلن تجد له وليًّا مرشدًا.

وصلى اللهم على سيدنا محمد نبي الرحمة، وإمام الهدى، وعلى آله والصحب الكرام.

ألا إن أصدق الحديث كلام الله، وخير الهدي هدي محمد، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار، ثم أما بعد:

فشهر رمضان الكريم من الأشهر التي عظمها الله ﷻ، وكرمها بليلة مباركة فيه، ونزول القرآن على نبيه ﷺ في تلك الليلة الكريمة، وهي ليلة القدر، وفرض فيه الصيام. ومعروف أن لهذا الشهر اهتمامًا خاصًا عند المسلمين، وذلك بتحضير ما لذّ وطاب من أطايب الطعام، ومن كثرة

النفقات، مما أحال شهر رمضان من شهر عبادات إلى شهر دنيا وملذات، بينما كان الصحابة ﷺ على عهد رسول الله ﷺ ينتظرون هذا الشهر قبله بستة أشهر؛ يتهيئون له بالعبادة، والدعاء إلى الله أن يبلغهم رمضان، وكانوا يعيشون من معينه بعد أن ينقضي ستة أشهر أخرى، وعلى هذا كان العام كله في رحاب رمضان بالنسبة إليهم.

ونحن اليوم أشد ما نكون حاجة لأن نعود لتلك المعاني مرة أخرى؛ فالأمة قد تدهور حالها، والناظر إلى حالها ليعجب كل العجب؛ إذ كيف بأمة مثل أمة الإسلام تملك كل مقومات النجاح والريادة، ثم يكون هذا حالها؟!

فلنستمد من العبادات وعلاقتنا بالله ﷻ في هذا الشهر الكريم المدد اللازم لأن نعود- ولو بالبعض- إلى رحاب ديننا الواسع؛ كي نتقوى بذلك على الصمود لتلك الهجمة الشرسة على الأمة الجريحة، وعلى الدين الحنيف، بعد أن تكالبت علينا الدنيا كما تتكالب الأكلة على قصعتها، وصرنا في أشد حالات الوهن التي أخبر عنها نبينا الحبيب ﷺ، ولنعش في رحاب رمضان الكريم؛ فربما يكون الرمضان الأخير الذي يمر علينا، ونرى كيف سيكون حالنا معه.

﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ﴾ [البقرة: ١٨٥].

إهداء: إلى من أجابوا النداء.. ورفعوا اللواء.. هذه جنة الخلد تمشي على الأرض بين أيديكم، ورحمات ربكم المُنزّلة تعرض نفسها عليكم.. وصوت الهادي يناديكم: يا باغي الخير أقبل، ويا باغي الشر أقْصِر.

في ليلة مقتل سيدنا عثمان بن عفان أتاه النبي ﷺ في رؤيا وقال له: «**يَا عُثْمانُ، سَتُفطِرُ عِنْدَنا غَدًا**»، فعلم عثمان أنها الشهادة، وأنه ولابد من أن يصبح صائمًا، فهو اليوم الأخير، فمن رأى رسول الله ﷺ في نومه، فقد رآه حقًّا، وهو الصادق ﷺ، فأصبح عثمان صائمًا، وانتظر أن تتحقق بشرى رسول الله ﷺ له بأنه سيفطر معه ومع من سبقه من الصحابة ﷺ إلى الجنة، ورفض أن يدافع عنه أحد؛ حتى لا تراق دماء المسلمين في مدينة رسول الله ﷺ، ورفض أن تتكشف زوجته حتى لا يدخل عليه المجرمون؛ فقد عرضت عليه أن تخلع حجابها، ليستحي القتلة من الدخول عليه.. وقبل المغرب كان عثمان بن عفان «ذو النورين» في قبره.

فتخيل معي أخي المسلم، وتخيلي أختي المسلمة أنك اليوم، وفي بداية شهر رمضان الكريم، وقد أتاك النبي ﷺ -وهو الصادق- وقال لك: سيكون هذا الرمضان الأخير لك. فكيف سيكون حالك مع نفسك، ومع الناس، ومع الله ﷻ؟ وكيف ستصومه؟ وما الإجراء الذي ستتخذه؟ وكيف ستستعد؟

ثم انظر من حولك في دائرتك وخارجها.. كم من أحباب كانوا بيننا!

وكم من شباب كانوا يتمنون لو يبلغون رمضان! وكم وكم!! ثم هاهو رمضان أتى، وهاهم لم يدركوه.. والآن يودون لو يعودون ليصوموا نهاره، ويقوموا ليله، بل يودون ألا تغفل عيونهم لحظة عن البكاء من خشية الله، أو ولا تغفل قلوبهم لحظة عن ذكر الله، أو لا تفتر ألسنتهم لحظة عن قول كل ما يرضي الله، ولكن هيهات هيهات، فأنَّى لهم ذلك وقد ذهبوا بلا عودة، وقد كانت الدنيا كلها بين أيديهم يومًا!!

وها هي الآن بين أيدينا اليوم، وغدًا نحن مثلهم ذاهبون بلا عودة، يقول تعالى: ﴿**حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ ۝ لَعلى أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ**﴾، فيأتيه الرد: ﴿**كَلاَّ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ**﴾ [المؤمنون: ٩٩،١٠٠].

وها هو رمضان بين يديك، وقد أتاك النذير والبشير من رسول الله ﷺ بأنه الشهر الأخير لك- تخيل ذلك- فماذا أنت فاعل قبل أن تقول: «**رَبِّ ارْجِعُونِ**».

ألا ترى معي أخي/ أختاه، أن هناك الكثير من المهام التي أمامك؟ ألا ترى أن هناك الكثير من العمل؟ ألا تود لو يمتد شهر رمضان هذا إلى شهور كثيرة كي تستطيع أن تعوض ما فاتك؟

انظر إلى نفسك أولاً: هل أنت جاهز لملاقاة الله؟ هل هي نفس طيبة بما يكفي لأن تقول لك ملائكة الرحمة: ﴿**سَلامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ**﴾ [الزمر: ٧٣]، أم ما زال بها من الأدران ما يحتاج للتطهير؟ إذن

فإياك أن تؤجل ذلك، وإلا ستقوم النار- والعياذ بالله- بتلك المهمة.

***

فلتتخلَّ عن: الغضب، الحسد، الغيبة، النميمة، الكبر، الفحش والسباب وبذاءة اللسان، إفشاء السر، والوعد الكاذب، الخصومة، الشح، والكلام فيما لا يعنيك.

وتحلَّ: بالتوبة المستمرة، بر الوالدين، صلة الأرحام، الإحسان إلى الجار، الصدق، الشكر، المراقبة، الخوف والرجاء، والتواضع، ثم كلِّل كل ذلك بالإخلاص.

ولتتجلَّ في النهاية، ولتَسْمُ بعلاقتك مع الله تبارك وتعالى، ثم مع نفسك، ثم مع الآخرين، ولتَسْمُ نفسك بأن تفرغها للعبادة في العشر الأواخر بالاعتكاف، وبأن تجد قرة عينك في الصلاة، وتلاوة كتاب الله، وذكر الموت، وقصر الأمل، ومحبة الله، والمراقبة، والمحاسبة، والذكر، والتفكر في خلق الله، والإكثار من الصدقات، وتجمل كل ذلك بالتقوى.

فلنجعل لكل يوم هدفًا أن نتخلى عن صفة، أو نتحلى بأخرى، حتى تأتي النهاية ونحن على طهارة نفس يمكن أن نلقى بها رب العالمين، وحتى لا يأتي علينا العيد إلا وقد غفر لنا، وحتى ندرك ليلة القدر، ونرفع أيدينا فلا تُرد علينا أدعيتنا. فلنشمر ونجتهد، ولنلبِّ نداء الله، فعن أنس بن مالك

ﷺ، عن النبي ﷺ فيما يرويه عن ربه ﷻ قال: «**يَقُولُ اللهُ تَعَالَى: أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي، وَأَنَا مَعَهُ إِذَا ذَكَرَنِي، فَإِنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي، وَإِنْ ذَكَرَنِي فِي مَلإٍ ذَكَرْتُهُ فِي مَلإٍ خَيْرٍ مِنْهُمْ، وَإِنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ بِشِبْرٍ تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ ذِرَاعًا، وَإِنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ ذِرَاعًا تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ بَاعًا، وَإِنْ أَتَانِي يَمْشِي أَتَيْتُهُ هَرْوَلَةً**»

[رواه البخاري].

ونحن اليوم، بل اللحظة قررنا الهرولة إلى الله، والهروب إليه، والارتماء في أحضان شريعته، والوقوف ببابه، ولن نبرح حتى نتطهر، ويغفر لنا؛ فهو الكريم، وهذا شهره الكريم، فهلموا إلى الخير الوفير قبل أن تغلق الأبواب، ويبدأ الحساب، ويحوينا التراب بعد مفارقة الأهل والأحباب.

فإلى الثلث الأول من رمضان
نتخلى فيه عن بعض أدران النفس،
ونتطهر منها؛ كي نرتدي ثوب الإسلام
الطاهر ونحن على طهارة.

***

ليلة الأول من رمضان

لزوم التوبة والاستغفار

«**كُلُّ ابْنِ آدَمَ خَطَّاءٌ وَخَيْرُ الْخَطَّائِينَ التَّوَّابُونَ**» [رواه الترمذي].

هكذا خلق الله ﷻ الإنسان يخطئ ويعود، وينسى ثم يتوب، ولولا أن كنَّا كذلك لذهب بنا، وأتى بخلق غيرنا يخطئون ويستغفرون ويتوبون، ويعودون إلى الله، ولا يمل الله ﷻ من العفو عن عباده حتى يملوا من التوبة.

وليس معنى هذا الكلام أن يذهب الإنسان إلى المعصية متعمدًا ويقول: إن الله تبارك وتعالى أراد لي ذلك، فقد قال رسول الله ﷺ: «**لاَ يَزْنِي الزَّانِي حِينَ يَزْنِي وَهُوَ مُؤْمِنٌ**» [متفق عليه]. إذن فقد انتفت صفة الإيمان عن مقترف المعصية حين يفعلها، ولكن حين ينتهي منها، أو حتى قبل أن يهمّ بفعلها يستيقظ إيمانه، ويفيق عقله من همزات الشيطان، ورغبات النفس، ويمس نسيم الإيمان قلبه، فساعتها تبكي العين، وينفطر القلب على ما اقترفه من آثام في حق الله- وليس مُهمًّا عظم الذنب، وإنما المهم في حق مَن تذنب!- فإذا عرفت وأفقت، فقد أدركت مدى الجرم الذي وقعت فيه، حتى ولو كان من صغار الذنوب، فقد أذنبت في حق من خلقك وأعطاك

وسترك دون أن تسأله، أذنبت في حق المطلع على عباده، ولا تخفى عليه خافية في السماوات ولا في الأرض، أذنبت في حق من يعطيك كل يوم من رزقه دون أن يشترط عليك عبادته، ويهبك كل يوم عمرًا جديدًا دون أن يرغمك على طاعته، وهو قادر سبحانه على أن يفعل، لكن الله ﷻ أرادك أن تذهب إليه طواعية دون شرط أو قيد.

اذهب إليه وسيقبلك.. بالليل.. بالنهار.. يبسط يده ليتوب المُسِيء في كل وقت، فقط اذهب إليه بذلة وانكسار وندم، وليكن هذا ديدنك، وليكن هذا طبعك، وليكن هذا حالك، دائم التوبة، فكلنا ذنوب، وكلنا معاصٍ وآثام، وكلنا مقصرون في حق الله، وكل لحظة تمر دون أن نذكره فيه أو نمجده، أو نسبحه، أو ندعوه، أو نرفع من شأن دينه، كل لحظة تمر دون أن نفعل ذلك تحتاج منا إلى توبة، النظرة غير المتعمدة تحتاج إلى توبة، فما بالنا بآلاف النظرات المتعمدة؟! وغيبة القلب تحتاج إلى توبة، فما بالنا بإطلاق الألسنة دون رابط في أعراض خلق الله؟! والكثير الكثير من الذنوب التي لو أحصيناها ما استطعنا، ونحن عنها غافلون، ظنًّا منا أننا على الصراط المستقيم، ونحن بغفلتنا وتقصيرنا أبعد ما نكون عنه.

﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور: ٣١]، فلم ينفِ الله ﷻ عنهم صفة الإيمان، وطلب منهم التوبة والعودة إليه سبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢]. ألا تحب أن تكون ممن يحبهم الله؟ إن كنت كذلك فتُبْ إليه، والله ﷻ يفرح بتوبتك وعودتك،

ويباهي بك الملائكة، ويسرع إليك ويناديك من قريب: عبدي إلى أين؟ ألك رب سواي؟ ألك رب سواي؟

فأي قسوة قلب تلك التي لا تجيب نداء التواب بعد اقتراف الذنب؟

يقول المصطفى صلوات الله وسلامه عليه: «**للهُ أَفْرَحُ بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ، مِنْ رَجُلٍ نَزَلَ مَنْزِلاً، وَبِهِ مَهْلَكَةٌ، وَمَعَهُ رَاحِلَتُهُ عَلَيْهَا طَعَامُهُ وَشَرَابُهُ، فَوَضَعَ رَأْسَهُ فَنَامَ نَوْمَةً، فَاسْتَيْقَظَ وَقَدْ ذَهَبَتْ رَاحِلَتُهُ، حَتَّى اشْتَدَّ عَلَيْهِ الْحُرُّ وَالْعَطَشُ، أَوْ مَا شَاءَ اللهُ، قَالَ: أَرْجِعُ إِلَى مَكَانِي. فَرَجَعَ، فَنَامَ نَوْمَةً، ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ فَإِذَا رَاحِلَتُهُ عِنْدَهُ**» [متفق عليه]، فالله تعالى أشد فرحًا بتوبة العبد المؤمن من هذا براحلته.

عد إلى مولاك، فليس لك رب سواه، وليس لك حبيب سواه، وأي حبيب ذلك الذي يدعو المذنبين ليتوبوا فيغفر ويغفو ويستر ويعطي بلا حدود، أي حبيب ذلك الذي يقول لعبده داود: يا داودُ، لَو يَدْرِي الْمُذْنِبُونَ مَدَى شَوْقي إِلَيهِمْ لَذَابُوا شَوْقًا إِلَيَّ. إنه الله وحده لا شريك له، إنه الله الذي نحمده، إنه إلهنا ونحمده أنه وحده لا شريك له، ونحمده أنه التواب، ونحمده لأنه وحده يستحق الحمد، ونحمده أن جعلنا نحمده.

تخيل أخي وأختي أن الله ﷻ جعل لك فرصة واحدة، ذنبًا واحدًا تفعله تتوب فيتوب عليك، ولا فرصة أخرى، ألا يفعلها الأب كثيرًا؟ ألا يقول لابنه: هذه آخر فرصة لك عندي؟ ذلك هو الأب.

أما الله فلا يمل حتى تملوا! ألا فاحمدوا الله على أنه الله الذي لا إله إلا

هو، وتوبوا إليه، واجعلوا الاستغفار على ألسنتكم، وفي قلوبكم، ولا تسأموا، فالحياة جد قصيرة، وكما اتفقنا فهذا هو الرمضان الأخير، فلتلهج ألسنتنا بالاستغفار ليل نهار، ولنجأر إلى الجبار عسى أن يتوب علينا قبل فوات الأوان.

***

١ - الخصومة

والخصومة أمر بغيض إلى الله ورسوله ﷺ، روت عائشة- رضي الله عنها- أن النبي ﷺ قال: «**إِنَّ أَبْغَضَ الرِّجَالِ إِلَى اللهِ الأَلَدُّ الخَصِمُ**» [رواه البخاري]. ونعني بالخصومة هنا الخصومة في الباطل، فمن كان له حق فيجب أن يطلبه، بل يلح في طلبه إلى أن يحصل عليه دون ظلم لخصمه، أو إيذاء، أو تشَفٍّ.

والخصومة لها أضرار كثيرة، وتبعات أليمة، منها: أنها توغر الصدر، وتثير الغضب الذي ينتج عنه من الشرور ما يوقع اللسان في المحظور من غيبة، وخوض في الأعراض؛ انتصارًا للنفس.

وقد أمرنا الله ﷻ بالقول الحسن لكل الناس، فقال سبحانه: ﴿**وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا**﴾ [البقرة: ٨٣].

وقال ﷺ: «**طِيبُ الكَلامِ، وبَذْلُ السَّلامِ، وإِطْعامُ الطَّعامِ**» جوابًا لمن سأله: يا رسول الله، أخبرني بشيء يوجب لي الجنة. [رواه ابن حبان في صحيحه].

وكيف يكون هناك طيب كلام إذا كانت الخصومة متأججة، ونار الغضب مستعرة.

فيا طلاب الجنة، اسمعوا حديث نبيكم ﷺ: «**الْكَلِمَةُ الطَّيِّبَةُ صَدَقَةٌ**» [رواه البخاري].

فكم من صداقات ضيعها الغضب! روى أنس ﷺ، عن النبي ﷺ أنه قال: «**إِنَّ فِي الجَنَّةِ لَغُرَفًا يُرَى ظُهُورُهَا مِنْ بُطُونِهَا، وَبُطُونُهَا مِنْ ظُهُورِهَا**»، فَقَامَ إِلَيْهِ أَعْرَابِيٌّ فَقَالَ: لِمَنْ هِيَ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: «**هِيَ لِمَنْ أَطَابَ الكَلامَ، وَأَطْعَمَ الطَّعَامَ، وَأَدَامَ الصِّيَامَ، وَصَلَّى للهِ بِاللَّيْلِ وَالنَّاسُ نِيَامٌ**» [رواه الترمذي].

وقال ﷺ: «**اتَّقُوا النَّارَ وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ، فَإِنْ لَمْ تَجِدْ فَبِكَلِمَةٍ طَيِّبَةٍ**» [متفق عليه].

ونكرر أنَّى تكون الكلمة الطيبة مع خصومة طاغية.

قال عمر بن الخطاب ﷺ: «البِرُّ شَيءٌ هَينٌ؛ وَجْهٌ طَلِيقٌ، وكَلامٌ لَينٌ» [رواه البيهقي في شعب الإيمان].

وقال ابن عباس: «لَوْ قَالَ لِي فِرْعَوْنُ: بَارَكَ اللهُ فِيكَ، لقُلْتُ: وَفِيكَ». [رواه الطبراني في الكبير].

فابتغِ الأجر عند الله ﷻ بالإحسان إلى عباده، فأنت في النهاية الرابح الأكيد، وأدنى ربحك سلامة صدرك، وتوفير صحتك، وأعلاها رضا ربك والجنة.

***

نـــــــــداء:

- إلى من عرفوه فأحبوه، وسمعوه فأطاعوه، إلى من تهيم قلوبهم شوقًا لمرافقته ﷺ، وولهت نفوسهم لشفاعته.
- إلى كل من صاح لسان الشوق في قلبه: نظرة من محمد ﷺ أحب إليَّ من الدنيا وما فيها.
- أرأيتم أحبائي، يمكرون برسولكم، ويسيئون إليه من دول حقيرة و.. إلى بابا الفاتيكان الحاقد على الإسلام.
- أتعلمون واجبكم؟
- تعرَّفوا عليه ﷺ، واقرءوا سيرته.
- اقتدوا به وبأصحابه رضي الله عنهم.
- أكثروا من الصلاة عليه.

* * *

٢ - إفشاء السر والوعد الكاذب

نهى الله ﷻ عن إيذاء المسلم بفعل أو قول، أو أي شيء يؤذي المسلم، مثل: أن يودعك سره ثم تفشيه، وأي خيانة، كأن يثق بك إنسان ويبث لك ما يهمه- أنت دون غيرك- ثم تخونه وتهينه، وتذهب وتروي عنه للآخرين، وتكسر نفسه، فأي جريمة تلك التي فعلتها!

يقول النبي ﷺ: «**إِذَا حَدَّثَ الرَّجُلُ الْحَدِيثَ ثُمَّ الْتَفَتَ فَهِيَ أَمَانَةٌ**» [رواه

الترمذي]. فأنت إن فعلت ذلك، فأقل ما يطلق عليك أنك خائن الأمانة، كما قال الحسن: إن من الخيانة أن تحدث بسر أخيك.

ورُوي أن معاوية ﷺ أسرَّ حديثًا إلى الوليد بن عتبة، فقال لأبيه: يا أبت، إن أمير المؤمنين أسرّ إليَّ حديثًا، وما أراه يطوي عنك ما بسطه إلى غيرك، فقال: لا تحدثني به؛ فإن من كتم سره كان الخيار له، ومن أفشاه كان الخيار عليه، قال: فقلت: يا أبت، وإن هذا ليدخل بين الرجل وابنه؟ فقال: لا والله يا بني، ولكن أحب ألاّ تذلل لسانك بأحاديث السر، قال: فأتيت معاوية فأخبرته، فقال: يا وليد، أعتقك أبوك من رق الخطأ.

فإفشاء السر خيانة، وهو حرام إذا كان فيه إضرار، ولؤم إن لم يكن فيه إضرار.

وأما الوعد الكاذب، فيقول النبي ﷺ: «**أَرْبَعٌ مَنْ كنَّ فِيهِ كَانَ مُنافِقًا خَالِصًا، وَمَنْ كانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنْهُنَّ كانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنَ النِّفاقِ حَتّى يَدَعَهَا: إِذا اؤْتُمِنَ خَانَ، وَإِذا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذا عاهَدَ غَدَرَ، وَإِذا خَاصَمَ فَجَرَ**» [متفق عليه].

وعن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**آيَةُ الْمُنَافِقِ ثَلاَثٌ: إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ، وَإِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ**» [متفقٌ عَلَيْهِ]، زَادَ في روايةٍ لمسلم: «**وإِنْ صَامَ وَصَلَّى وَزَعَمَ أَنَّهُ مُسْلِمٌ**». وذلك إذا كان عازمًا على عدم الوفاء في أثناء وعده، أما إذا كان صادقًا في وعده، وطرأ عليه ما يمنعه من تحقيق وعده رغمًا عنه، فهذا شيء آخر، وينبغي على المسلم أن يحذر هذا الأمر، ولا يستهين به؛ فهو خصلة من خصال النفاق، أعاذنا الله منه.

الهـــــــدايا:

* **مضاعفة الأجر:** فهو شهر فيه ليلة خير من ألف شهر، ومن تقرب فيه بخصلة من خصال الخير كان كمن أدى فريضة فيما سواه، ومن أدَّى فريضة فيه كان كمن أدَّى سبعين فريضة فيما سواه، وهو شهر الصبر، والصبر ثوابه الجنة، وشهر المواساة، وشهر يزاد في رزق المؤمن، ومن فطّر فيه صائمًا كان مغفرة لذنوبه، وعتقًا لرقبته من النار، وكان له مثل أجر الصائم دون أن ينقص أحدهما من الآخر شيئًا.

* **شهر البركة:** هو شهر يحط الله فيه الخطايا، ويستجيب فيه الدعاء، وينظر إلى تنافسنا في الخير، ويباهي بنا الملائكة.

* **دخول الجنة:** ففي الجنة باب يقال له: الريان، يدخل منه الصائمون.

* **تصفيد الشياطين:** قال ﷺ: «**إِذَا كَانَتْ أَوَّلُ لَيْلَةٍ مِنْ رَمَضَانَ صُفِّدَتْ الشَّيَاطِينُ وَمَرَدَةُ الْجِنِّ، وَغُلِّقَتْ أَبْوَابُ النَّارِ فَلَمْ يُفْتَحْ مِنْهَا بَابٌ، وَفُتِحَتْ أَبْوَابُ الْجَنَّةِ فَلَمْ يُغْلَقْ مِنْهَا بَابٌ**» [رواه ابن ماجه].

* **الشفاعة:** قال ﷺ: «**الصِّيامُ والقُرآنُ يَشْفعان لِلعَبدِ يَومَ القِيامَةِ**» [رواه أحمد].

٣ - الكلام فيما لا يعنيك

وتلك آفة عظيمة، وليعلم المرء أن كل كلمة يتلفظ بها محاسب عليها، وأنه لديه ملكين، فالكلمة التي يتلفظ بها يتعهدها إما ملك اليمين في صحيفة حسناتك، أو ملك الشمال في صحيفة سيئاتك.

فلنعلم أن الكلام يجب أن نتوخى فيه الحذر، هذا إن كان فيما يعنينا، فما بالنا إن كان فيما لا يعنينا، وحتى إن لم تحمل من كلامك فيما لا يعنيك وزرًا، فأنت في نفس الوقت لم تُحصّل أجرًا، وبهذا يكون قد فاتك الكثير من الخير، فقد ضاع وقتك. ووقتك هو عمرك.

ومن الكلام فيما لا يعنيك أن تلقى إنسانًا ما فتسأله: من أين؟ وإلى أين؟ وأين كنت بالأمس؟ وربما هو لا يود أن يخبرك، فيضطر أن يكذب، أو أن يداري، وبذلك تكون قد دفعته إما لفعل معصية، أو للمشقة في الخروج من الموقف الذي وضعته أنت فيه؛ بسبب سؤالك عما لا يعنيك أن تعرف جوابه، ولهذا قال النبي ﷺ: «**مِنْ حُسْنِ إِسْلامِ الْمَرْءِ تَرْكُهُ مَا لاَ يَعْنِيهِ**»

[رواه الترمذي].

والكلام فيما لا يعنيك من المباحات التي توشك أن توقع بك في الحرام، والأولى بك أن تشغل نفسك بتسبيحة، أو تكبيرة، أو تهليلة، فتكون غرست لنفسك نخلة في الجنة، أو تصلح بين متخاصمين، أو تفكر في خلق الله. فكم من كلمة يقولها المرء لا يلقي لها بالاً يهوي بها في النار سبعين خريفًا! وكم من كلمة ترفعه إلى أعالي الجنان!.

قال عمر بن الخطاب ﷺ: لا تتعرضْ لمَا لا يَعنيك، واعتزلْ عدوَّك، واحذرْ صديقك من القوم إلا الأمين، ولا أمين إلا من خَشِي الله تعالى، ولا تصحب الفاجر فتتعلم من فجوره، ولا تُطلعه على سرِّك، واستشرْ في أمرك الذين يخشون الله تعالى. [رواه أبو داود في الزهد].

ونختم هنا بقول الله ﷻ: ﴿**لا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلاَّ مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلاحٍ بَيْنَ النَّاسِ**﴾ [النساء: ١١٤].

***

٤- الحسد

وهو تمني زوال النعمة من المحسود، وهو داء عضال، ومرض لا يفسد الحاسد فقط، وإنما تفسد معه المجتمعات، وتضيع القيم والمروءة، فالحسد نار في القلب إذا اضطرمت أورثت الغل والحقد والمؤامرت، وهو في هذه الحالة كبيرة من الكبائر، يقول ﷺ: «**دَبَّ إِلَيْكُمْ دَاءُ الأُمَمِ قَبْلَكُمْ الْحَسَدُ وَالْبَغْضَاءُ، هِيَ الْحَالِقَةُ، لا أَقُولُ تَحْلِقُ الشَّعَرَ، وَلَكِنْ تَحْلِقُ الدِّينَ**» [رواه الترمذي]، ويقول ﷺ: «**الحَسَدَ يَأْكُلُ الحَسَنَاتِ كَمَا تَأْكُلُ النَّارُ الحَطَبَ**» [رواه أبو داود]، ويقول أيضًا ﷺ في النهي عن الحسد وآثاره من تباغض وتدابر: «**لا تَحَاسَدُوا، وَلا تَبَاغَضُوا، وَلا تَقَاطَعُوا، وَكُونُوا عِبَادَ اللهِ إِخْوَانًا**»

[رواه مسلم].

وروى أبو هريرة ﷺ، عن النبي ﷺ أنه قال: «**إِنَّه سيُصيبُ أُمَّتي دَاءُ الأُمَمِ**»، قالوا: وما داء الأمم؟ قال: «**الأَشَرُ والبَطَرُ والتَّكاثُرُ والتَّنافُسُ في**

الدُّنيا، والتباغُدُ والتَّحاسُدُ، حتَّى يكونَ البَغْيُ ثُم الهَرجُ»

[رواه الطبراني في الأوسط].

والحسد هو الذنب الأول بعد خلق آدم عليه السلام، فإنما حسده إبليس فأبى وتكبر أن يسجد له، فكان من المخلدين في النار، وتلاه حسد ابن آدم لأخيه فقتله، وكان أيضًا من المخلدين في النار بسبب الحسد، ولذلك قيل:

كل العداوات قد ترجى إماتتها إلا عداوة من عاداك من حسد

ويقول أعرابي: ما رأيت ظالمًا أشبه بمظلوم من حاسد؛ فإنه يرى عليك النعمة نقمة عليه.

وقال الحسن: يا ابن آدم، لمَ تحسد أخاك؟ فإن كان الذي أعطاه لكرامته عليه، فلمَ تحسد من أكرمه الله؟ وإن كان غير ذلك، فلمَ تحسد من مصيره النار؟ والحسد لا يكون إلا بسبب نعمة أنعمها الله ﷻ على عبد.

فالحسد المذموم أن تكره هذه النعمة وتتمني زوالها عن صاحبها، وأما الغبطة، فهي أن ترى النعمة فتحبها لصاحبها، ولكن تتمنى مثلها لنفسك، والحسد حرام على كل حال، فأي معصية تكبر من كراهيتك الخير والنعمة لأخيك المسلم؟ ثم هو من صفات المنافقين حين يصفهم الله ﷻ: ﴿**إِنْ تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا**﴾ [آل عمران: ١٢٠].

ومن هذا الحسد حسد إخوة يوسف له حين ظنوا أن أباهم يحبه أكثر منهم، وكان نتيجته أن ألقوه في الجب، ﴿**إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَى**

أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ﴾ [يوسف:٨]، ومنه حسد اليهود للنبي ﷺ حين جاء من غيرهم، فعادوه رغم معرفتهم الوثيقة بأنه هو النبي المنتظر، وفي ذلك قالت صفية بنت حيي بن أخطب للنبي ﷺ: جاء أبي وعمي من عندك يومًا فقال أبي لعمي: ما تقول فيه؟ قال: أقول: إنه النبي الذي بشر به موسي. قال: فما ترى؟ قال: عداوته ما حييت. وذلك حسدًا من عند نفسه.

أما الغبطة والمنافسة فلا شيء فيها، بل هي أحيانًا مطلوبة؛ لقوله ﷺ: «**لاَ حَسَدَ إِلاَّ فِي اثْنَتَيْنِ: رَجُلٌ آتَاهُ اللهُ مَالاً، فَسُلِّطَ عَلَى هَلَكَتِهِ فِي الْحَقِّ، وَرَجُلٌ آتَاهُ اللهُ الْحِكْمَةَ، فَهُوَ يَقْضِي بِهَا وَيُعَلِّمُهَا**» [متفق عليه].

إن عاقبة الحسد كلها سوء، وهو حرام بالإجماع، فيجب على المسلم أن يتعهد نفسه بإصلاحها بالعلم، ومصاحبة أهله ومحبتهم.. وكُن على يقين بأن «**مَا أَخْطَأَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَكَ، وَمَا أَصَابَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَكَ**» [رواه أبو داود وابن ماجة]، قبل أن تهلك نفسك مع من هلك من قبل بسبب الحسد، وكل حسد تجده في نفسك، فأنت فيه رفيق إبليس وشريكه، فاختر لنفسك مع من تحب أن تكون.

***

من فوائد الذكر:

١- يطرد الشيطان ويقمعه ويكسره.

٢- يرضي الرحمن ﷻ.

٣- يزيل الهم والغم عن القلب.

٤- يجلب للقلب الفرح والسرور.

٥- يقوي القلب والبدن.

٦- ينير الوجه والقلب.

٧- يجلب الرزق.

٨- يحط الخطايا.

٩- سبب نزول السكينة.

١٠- غراس الجنة.

***

٥- الكـــــبر

قال الله تعالى: ﴿**سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ**﴾ [الأعراف:١٤٦]، وقال: ﴿**إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ**﴾ [النحل: ٢٣].

وفي الحديث الصحيح، أن رسول الله ﷺ قال: «**لا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبْرٍ**» [رواه مسلم]. وفي الصحيحين قال ﷺ: «**قَالَتْ النَّارُ أُوثِرْتُ بِالْمُتَكَبِّرِينَ**».

وعنه ﷺ أنه قال: «**يُجاءُ بِالجَبَّارينَ والمُتكَبِّرِينَ رِجَالاً في صُورِ الذَّرِّ، يَطَؤُهُمُ النَّاسُ مِن هَوانِهِمْ على اللهِ ﷻ**» [رواه أحمد في الزهد].

وقال سفيان بن عيينة: من كانت معصيته في شهوة، فارجُ له التوبة، فإن آدم عليه السلام عصى مشتهيًا فغفر له، فإذا كانت معصيته من كبر، فاخْشَ عليه اللعنة، فإن إبليس عصى مستكبرًا فلُعِن. [رواه البيهقي في شعب الإيمان].

وفي «الصحيحين»، أن رسول الله ﷺ قال: «**مَنْ جَرَّ ثَوْبَهُ خُيَلاءَ لَمْ يَنْظُرْ اللهُ إِلَيْهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**»، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: يَا رَسُولَ اللهَّ، إِنَّ أَحَدَ شِقَّيْ ثَوْبِي يَسْتَرْخِي إِلاَّ أَنْ أَتَعَاهَدَ ذَلِكَ مِنْهُ. فَقَالَ رَسُولُ اللهَّ ﷺ: «**إِنَّكَ لَسْتَ تَصْنَعُ ذَلِكَ خُيَلاءً**».

وعن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**قَالَ اللهُّ عَزَّ وَجَلَّ: الْكِبْرِيَاءُ رِدَائِي، وَالْعَظَمَةُ إِزَارِي، فَمَنْ نَازَعَنِي وَاحِدًا مِنْهُمَا قَذَفْتُهُ فِي النَّارِ**» [رواه أبو داود وابن ماجة].

وقال سليمان بن داود- عليهما السلام- يومًا للطير والإنس والجن والبهائم: اخرجوا. فخرجوا في مائتي ألف من الإنس، ومائتي ألف من الجن، فرفع حتى سمع زجل الملائكة بالتسبيح في السماوات، ثم خفض حتى مست أقدامه البحر فسمع صوتًا: لو كان في قلب صاحبكم مثقال ذرة من كبر لخسفت به أبعد مما رفعته.

وفي الحديث الصحيح، قال ﷺ: «**تَحَاجَّتْ الْجَنَّةُ وَالنَّارُ، فَقَالَتْ النَّارُ:**

أُوثِرْتُ بِالْمُتَكَبِّرِينَ وَالْمُتَجَبِّرِينَ، وَقَالَتْ الْجَنَّةُ: مَا لِي لا يَدْخُلُنِي إِلَّا ضُعَفَاءُ النَّاسِ وَسَقَطُهُمْ؟ قَالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لِلْجَنَّةِ: أَنْتِ رَحْمَتِي أَرْحَمُ بِكِ مَنْ أَشَاءُ مِنْ عِبَادِي، وَقَالَ لِلنَّارِ: إِنَّمَا أَنْتِ عَذَابِي أُعَذِّبُ بِكِ مَنْ أَشَاءُ مِنْ عِبَادِي، وَلِكُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْكُمَا مِلْؤُهَا» [متفق عليه].

وفي الأثر يقول أبو بكر الصديق ﷺ: لا يحقرن أحدٌ أحدًا من المسلمين؛ فإن صغير المسلمين عند الله كبير. فاحذر أيها المتكبر غضب الله وسخطه، واحذر النار التي أعدها للمتكبرين المتجبرين، واسأل نفسك: أين ملكُك من مُلك سليمان؟ وأين حسبك ونسبك من نسب النبي ﷺ؟ وأين جمالك من جمال يوسف عليه السلام؟ وأين وأين؟؟ فعلام الكبر، وعلام التجبر؟؟

***

أختي، تأملي معي يا ابنة عائشة (أحلي نسب.. أليس كذلك؟).

أو بلغة العصر يا ابنة القرن العشرين، اسمعي عتاب أمك عائشة عندما رأت لباسًا لا يرضي الله ماذا قالت؟

قالت: إن كنتن مؤمنات، فهذا ليس لباس المؤمنات، وإن كنتن غير مؤمنات فتمتعن به.

فما أنت فاعلة إذا علمت بحالك في ملابسك؟ وماذا هي قائلة لك إذا رأت تلاعبك في حجابك؟

أختاه، متى كانت بيوت الأزياء العالمية تقدم حجابًا للمسلمات؟! إنها

والله صورة مشوهة للحجاب، فهذه طرحة شفافة، وأخرى على هيئة شبكة، وتارة حول الرأس فقط دون الرقبة، فلا تترددي أختاه بالرجوع إلى الله.

* * *

٦ – الغضـــب

من يستطيع أن يطفئ نار غضبه؟ من يستطيع أن يملك نفسه؟ من يستطيع أن يكظم غيظه؟ من يستطيع أن يجعل حميته لله وحده؟ إن كنت أنت أخي المسلم تستطيع أن تكون ذلك، فقد ملكت أمرك، وأرضيت ربك، وأطعت نبيك، وخذلت إبليس عليه لعنة الله، قال الله تعالى: ﴿**إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنْزَلَ اللهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ**﴾ [الفتح: ٢٦].

وروى أبو هريرة ﷺ أن رجلاً قال: يا رسول الله، مُرني بعمل وأقلل. قال: «**لا تَغْضَبُ**»، ثم أعاد عليه فقال: «**لا تَغْضَبُ**» [رواه البخاري].

وعن ابن مسعود قال: قال النبي ﷺ: «**مَا تَعُدُّونَ الصُّرَعَةَ فِيكُمْ؟**» **قَالُوا: الَّذِي لا يَصْرَعُهُ الرِّجَالُ. قَالَ:** «**لا، وَلَكِنَّ الَّذِي يَمْلِكُ نَفْسَهُ عِنْدَ الْغَضَبِ**» [رواه أبو داود].

والغضب نار، والشيطان نار، فكلما غضبت ازداد وجهك توقدًا، وانتفخت أوداجك، وازددت قربًا من الشيطان، فأنت على حافة الهاوية فأسرع وعد وتوضأ؛ لتطفئ تلك النار بالماء، وإلا كنتَ كاللعبة في يد

الشيطان يتلاعب بك حين تغضب، فيصدر عنك من الآثام ما لا تدركه إلا بعد أن يفوت الأوان.

ومن أهم أسباب الغضب الحمية، والاعتداد بالنفس، والكبر، والعجب، والأمر يحتاج في التخلص من تلك الصفات الرذيلة إلى جهد ومشقة، واتصال بالله ﷻ، وملازمة لأهل العلم والتقوى، ودعاء مستمر، وإذا كنت قادرًا اليوم أن تغضب، وأن تصب نار غضبك على غيرك، فالله ﷻ أقدر منك، بل لا مقارنة في تلك القدرة، فهو ﷻ قادر عليك قدرة مطلقة، فإذا أردت عفوه مع قدرته على إنفاذ وعيده لك، فاعف أنت أولاً، وتسامح مع غيرك حتى يعفو عنك سبحانه.

ثم تخيل صورتك حين تغضب، ومدى قبحك وقتها، وإذا أردت أن تعرف ذلك، فانظر إلى غيرك حين غضبه، وتعجبك من سوء شكله، فأنت مثله، أو انظر لنفسك في مرآة، ولن تجد أمامك سوى صورة حيوان هائج تأبى نفسك أن تكون مثله.

ومن أسباب الغضب أن الشيطان يصور لك أنك ستظهر بصورة الضعيف، وبذلك سيستصغرونك، ومع أن هذا الكلام باطل، ولا أساس له من الصحة، إلا أنه حتى لو كان حقًّا، فأَنْ تصغر في أعين الناس خير لك من أن تصغر في عين الله وملائكته وأنبيائه وصالح المؤمنين، فأنت إذا كظمت غيظك، كنت ممن يكون أجرهم على الله، وينادي عليك يوم القيامة: «لِيَقُمْ مَن كَانَ أَجْرُه عَلَى اللهِ، فَلاَ يَقومُ إِلاَّ مَنْ عَفَا» [رواه البيهقي في

شعب الإيمان]. ألا تحب أن تكون منهم؟

ثم غيّر موضعك، وقم فتوضأ، وأطفئ نار غضبك، وإذا كنت جالسًا فلتقم، وإذا كنت قائمًا فلتغير من وضعك؛ فقد روي أن أبا ذر ﷺ قال لرجل: يا ابن الحمراء- في خصومة بينهما- فبلغ ذلك النبي ﷺ، فقال: «**يَا أَبَا ذَرٍّ، بَلَغَنِي أَنَّك سَبَبْتَ أَخَاكَ بِأُمِّهِ**»، فقال: نعم يا رسول الله. فانطلق أبو ذر ﷺ ليُرضيَ الرجل، فسبقه الرجل فسلم عليه، فذكر ذلك لرسول الله ﷺ، فقال ﷺ: «**يَا أَبَا ذَرٍّ، ارْفَعْ رأْسَكَ فانْظُرْ إلى المَلإِ**». فنظر إلى مَن حولَ رسول الله ﷺ فقال ﷺ: «**مَا أنتَ بِأفْضلَ مِن أَحْمَرَ وأَسْودَ مِنْهُمْ إلاَّ عَلَى مَا كَانَ لكَ عَليه فَضْلٌ في الدِّينِ**» [رواه الطبراني في مسند الشاميين].

وإذا غضبت فإن كنت قائمًا فاقعد، وإن كنت قاعدًا فاتكئ، وإن كنت متكئًا فاضطجع.

***

٧- الغيبـــــة

إذا كنت ممن يحب أن يأكل لحوم البشر أمواتًا، فأنت ممن نتحدث هنا عنه، وإذا كنت تستقبح الزِّنى وتمارس الغيبة، فقد فعلت ما هو أشد عند الله من الزنى، وإذا كنت لا تخشى من أن تكون ممن يخمشون وجوههم بأظافرهم، فأقبِلْ على الغيبة ولا تخف.

هكذا هي الغيبة، والتي معناها: ذكرك أخاك بما يكره، وهكذا هو أمرها البشع، يقول الله ﷻ: ﴿**وَلا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ**

يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ﴾ [الحجرات: ١٢]، وقال ﷺ: «**كُلُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ حَرَامٌ دَمُهُ وَمَالُهُ وَعِرْضُهُ**» [رواه مسلم]، وقال ﷺ: «**لاَ تَحَاسَدُوا، وَلاَ تَبَاغَضُوا، وَلاَ تَجَسَّسُوا، وَلاَ تَحَسَّسُوا، وَلاَ تَنَاجَشُوا، وَكُونُوا عِبَادَ اللهِ إِخْوانًا**» [متفق عليه].

وقال أنس ﷺ: قال رسول الله ﷺ: «**لَمَّا عُرِجَ بِي مَرَرْتُ بِقَومٍ لَهُمْ أَظْفَارٌ مِنْ نُحَاسٍ يَخْمِشُونَ وُجُوهَهُمْ وَصُدُورَهُمْ فَقُلْتُ: مَنْ هؤُلاءِ يَا جِبرِيلُ؟ قَالَ: هؤُلاءِ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ لُحُومَ النَّاسِ، وَيَقَعُونَ فِي أَعْرَاضِهِمْ**»[رواه أبو داود].

والغيبة المقصود منها إظهار عيب المسلم تكون غيبة على أي حال، سواء باللسان، أو بالإشارة، أو بالإيماء، أو بالكتابة، طالما أن المقصود منها ذلك، ومنها قول عائشة- رضي الله عنها: دخلتْ علينا امرأة فلما ولَّتْ أومأت بيدي أنها قصيرة، فقال ﷺ: «**اغْتَبْتِهَا**» [رواه ابن أبي الدنيا في ذم الغيبة والنميمة]، ومنها الإصغاء إلى الغيبة على سبيل التعجب، فيزيد المتحدث في حديثه وغيبته، ولذلك قيل: المستمع أحد المغتابين.

وليس لك من أمور الغيبة إلا أن تكون من المتظلمين لقاضي مثلاً كي تطلب حقك، أو تستعين بأحد على تغيير منكر، أو تستفتي في أمر من ظلمك، أو تحذر مسلمًا من شره، أو أن يكون الشخص نفسه مجاهرًا بالمعصية، فلا يُضيره أن يُعرف بها؛ لأنه أصلاً معروف بها، ومعلن لها.

وأما كفارتها، فالتوبة والندم، والعزم على عدم العودة، وأن تستغفر لمن اغتبته، وأن تصلح الأمر بأن تثني عليه، وتذكره بخير، ويجب في هذه الحالة

على من كانت الغيبة في حقه أن يعفو ويصفح، وذلك خير لـه عنـد الله، وفي ذلك قال الحسن: إذا جثت الأمم يوم القيامة بين يدي الله ﷻ نـودوا: لـيقـم من كان له أجر على الله، فلا يقوم إلا العافون عن الناس في الدنيا، وقد قـال الله تعالى: ﴿**خُـذِ الْعَفْـوَ وَأْمُـرْ بِـالعُرْفِ وَأَعْـرِضْ عَـنِ الجَـاهِلِينَ**﴾ [الأعراف: ١٩٩]، فقال النبي ﷺ: «**يا جِبريلُ، مَا هَذَا العَفْوُ؟**» فقال: إنَّ اللهَ تَعَالَى يَأمُرُكَ أنْ تَعْفُوَ عمَّنْ ظَلَمَكَ، وتَصِلَ مَن قَطَعكَ، وتُعْطِي مَن حَرَمَك.

***

٨- النميمـــة

هل أنت ممن يحب أن يفرق بين الأحبة والأصحاب؟ فأنت عند الله بغيض فاسق، وعند رسول الله ﷺ من شرار الناس، يقول الله ﷻ: ﴿**هَمَّازٍ مَشَّاءٍ بِنَمِيمٍ**﴾ [القلم: ١١]، ويقول ﷺ: «**لا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ تَمَّامٌ**» [متفق عليه]، وقال أبو هريرة ﷺ، عن النبي ﷺ أنه قال: «**أَحَبُّكُمْ إِلَى الله أَحَاسِنُكُمْ أَخْلاَقًا، المُوَطَّئُونَ أَكْنافًا، الذِينَ يَأْلَفُونَ وَيُؤْلَفُونَ، وإنَّ أَبْغَضَكُمْ إلى الله المَشَّاءُونَ بِالنَّمِيمَةِ، المُفرِّقُونَ بينَ الإِخْوانِ، المُلْتَمِسُونَ لِلْبُرَآءِ- جمع بريء، وهو البعيد عن التُّهَم- العَنَتَ**» [رواه الطبراني في الكبير].

وقال ﷺ: «**ألاَ أَخْبِرُكُم بِشِرَارِكُم؟**» قالوا: بلي، قال: «**المَشَّاءُونَ بِالنَّمِيمَةِ، المُفْسِدُونَ بينَ الأحبَّةِ، البَاغُونَ لِلْبُرَآءِ العَيْبَ**» [رواه أحمد].

وكما قلنا: إن النمام عند الله ﷻ فاسق مردود الشهادة، يقول فيه سبحانه: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا**

﴿بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾ [الحجرات: ٦].

والمطلوب أيضًا ألا نسيء الظن بالأخ المسلم الغائب؛ لقوله تعالى: ﴿اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾ [الحجرات: ١٢].

وروي عن عمر بن عبد العزيز ﷺ، أنه دخل عليه رجل فذكر له عن رجل شيئًا، فقال له عمر: إن شئت نظرنا في أمرك، فإن كنت كاذبًا فأنت من أهل هذه الآية: ﴿إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا﴾، وإن كنت صادقًا فأنت من أهل هذه الآية: ﴿هَمَّازٍ مَشَّاءٍ بِنَمِيمٍ﴾، وإن شئت عفونا عنك؟ فقال: العفو يا أمير المؤمنين، ولا أعود أبدًا.

وقال الحسن: مَن نمَّ لك نمَّ عليك.

قال ﷺ: «**إِنَّ شَرَّ النَّاسِ عِنْدَ اللهِ مَنْزِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَنْ تَرَكَهُ النَّاسُ اتِّقَاءَ شَرِّهِ**» [رواه البخاري]. والنمام منهم، وذُكر أن حكيمًا من الحكماء زاره بعض إخوانه، فأخبره بخبر عن بعض أصدقائه، فقال له الحكيم: قد أبطأت في الزيارة، وأتيت بثلاث جنايات: بغضت أخي إلي، وشغلت قلبي الفارغ، واتهمتَ نفسك الأمينة.

وقال لقمان لابنه: يا بني، أوصيك بخلال إن تمسكت بهن لم تزل سيدًا؛ أُبسط خلقك للقريب والبعيد، وأمسك جهلك عن الكريم واللئيم، واحفظ إخوانك، وصِلْ أقاربك وأمِّنهم من قبول قول ساعٍ، أو سماع باغٍ يريد فسادك، ويروم خداعك، وليكن إخوانك من إذا فارقتهم وفارقوك لم تعبهم ولم يعيبوك.

فالنميمة شر كلها، وحرام بالإجماع، وشرها لا حد له، عافانا الله وعافى المسلمين جميعًا من شرها، وشر أهلها.

***

٩- الشح

ذم الله ﷻ الشح والبخل. وكان النبي ﷺ جوادًا، وكان أجود في رمضان من الريح المرسلة، والصحابة الكرام لم يُعرف عنهم واحد بالبخل أو الشح، ولم يذكر التاريخ أحدًا من البخلاء بخير، ولا أحد يحب البخيل الشحيح، يقول تعالى: ﴿**وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ**﴾ [الحشر: ٩]، وقال تعالى: ﴿**وَلا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**﴾ [آل عمران: ١٨٠]، وقال تعالى: ﴿**الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ**﴾ [النساء: ٣٧].

وقال ﷺ: «**وَاتَّقُوا الشُّحَّ؛ فَإِنَّ الشُّحَّ أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ؛ حَمَلَهُمْ عَلَى أَنْ سَفَكُوا دِمَاءَهُمْ، وَاسْتَحَلُّوا مَحَارِمَهُمْ**» [رواه مسلم].

وقال ﷺ: «**إِيَّاكُمْ والظُّلْمَ؛ فإنَّ الظُّلْمَ ظُلُماتٍ يَومَ القِيامَةِ، وإيَّاكُمْ والفُحْشَ؛ إنَّ اللهَ لا يُحِبُّ الفُحْشَ ولا المُتَفَحِّشَ، وإيَّاكُمْ والشُّحَّ؛ فإنَّما أَهْلكَ مَن كانَ قَبْلَكم الشُّحُّ؛ أَمَرَهُمْ بِالكَذِبِ فكَذَبُوا، وأَمَرَهُمْ بالظُّلْمِ فظَلَمُوا، وأَمَرَهُم بالقَطِيعَةِ فَقَطَعُوا**» [رواه الحاكم].

وجاء في الأثر قال ابن عباس- رضي الله عنهما: لما خلق الله جنة عدن

قال لها: تزيني. فتزينت، ثم قال لها: أظهري أنهارك. فأظهرت عين السلسبيل، وعين الكافور، وعين التسنيم، فتفجر منها في الجنان أنهار الخمر وأنهار العسل واللبن، ثم قال لها: أظهري سررك وحجالك وكراسيك وحليك وحللك وحور عينك. فأظهرت، فنظر إليها فقال: تكلمي. فقالت: طوبى لمن دخلني. فقال الله تعالى: وعزتي لا أُسكنك بخيلاً.

وقال كعب: ما من صباح إلا وقد وكِّل به ملكان يناديان: اللهم عجِّل لممسك تلفًا، وعجل لمنفق خلفًا.

وفي الأثر، لقي يحيى بن زكريا- عليهما السلام- إبليس في صورته فقال له: يا إبليس، أخبرني بأحب الناس إليك، وأبغض الناس إليك. قال: أحب الناس إلي المؤمن البخيل، وأبغض الناس إلي الفاسق السخي، قال له: لِمَ؟ قال: لأن البخيل قد كفاني بخله، والفاسق السخي أتخوف أن يطلع الله عليه في سخائه فيقبله. ثم ولّى وهو يقول: لولا أنك يحيى لما أخبرتك[ذكره الغزالي في الإحياء].

ومُدحت امرأة عند رسول الله ﷺ فقالوا: صوامة قوامة إلا أن فيها بُخلاً، فقال ﷺ: «**فَمَا خَيْرُهَا إِذَنْ**» [رواه البيهقي في شعب الإيمان].

قال عبد الله بن المبارك:

رأيت الذنوب تميت القلوب ... وقد يورث الذل إدمانها
وترك الذنوب حياة القلوب ... وخير لنفسك عصيانها
وهل أفسد الدين إلا الملوك ... وأحبار سوء ورهبانها

١٠ - الفحش والسب وبذاءة اللسان واللعن

يقول ﷺ: «**إيَّاكُمْ والفُحْشَ؛ فإنَّ اللهَ تعالى لا يحبُّ الفُحشَ ولاَ التَّفَحُّشَ**» [رواه الحاكم في المستدرك].

ومن ذا يحب السبَّاب البذيء في كلماته وتصرفاته؟! بل إن النبي ﷺ نهى المسلمين عن أن يسبوا قتلى بدر من المشركين، فقال ﷺ: «**إنَّه لاَ يَخْلُصُ إلَيهِم شَيءٌ مِمَّا تَقُولُونَ، وتُؤذُونَ الأحْياءَ، أَلاَ إنَّ البَذَاءَ لُؤْمٌ**» [رواه الخرائطي في مساوئ الأخلاق].

وقال ﷺ: «**لَيْسَ المُؤْمِنُ بالطَّعَّانِ، وَلاَ اللَّعَّانِ، وَلاَ الفَاحِشِ، وَلاَ البَذِيء**» [رواه الترمذي]، وقال ﷺ: «**أَرْبَعَةٌ يُؤْذُونَ أَهْلَ النَّارِ عَلَى مَا بِهِمْ مِنَ الأَذَى، يَسْعَوْنَ بَيْنَ الْحَمِيمِ وَالْجَحِيمِ، يَدْعُونَ بِالْوَيْلِ وَالثُّبُورِ... وَرَجُلٌ يَسِيلُ فُوهُ قَيْحًا وَدَمًا يَقُولُ أَهْلُ النَّارِ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: مَا بَالُ الأَبْعَدِ قَدْ آذَانَا عَلَى مَا بنا مِنَ الأَذَى؟ فَيَقُولُ: إِنَّ الأَبْعَد كَانَ يَنظُرُ إِلَى كُلِّ كَلِمَةٍ قَذِعَةٍ خَبِيثَةٍ فَيَستَلِذَّهَا كَمَا يستلذ الرَّفَث**» [رواه ابن أبي الدنيا في صفة النار].

وقال جابر بن سمرة- رضي الله عنهما: كنت جالسًا عند النبي ﷺ وأبي أمامي، فقال ﷺ: «**إنَّ الفُحشَ والتَّفاحُشَ لَيْسَا مِن الإسلامِ في شَيءٍ، وإنَّ أحْسنَ الناسِ إسْلامًا أحاسِنُهُم أخْلاقًا**» [رواه أحمد].

والفحش هو التعبير عن الأمور المستقبحة بألفاظ وعبارات صريحة، وأكثر ما تقال في الأسواق، وبين العامة والجهال، أما أهل التقى والصلاح فيتحاشون الحديث بها، أو حتى سماعها، فيعفون ألسنتهم وآذانهم عن

الوقوع في الابتذال والفحش، يقول ابن عباس: إن الله حيي كريم يعفو ويكنو (أي يذكر بدلاً للفظ كناية عنه)، فكنى باللمس عن الجماع.

وقال ﷺ: «**سِبَابُ الْمُسْلِمِ فُسُوقٌ وَقِتَالُهُ كُفْرٌ**» [متفق عليه]، وقال ﷺ: «**الْمُتَسَابَّانِ مَا قَالاَ، فَعَلَى البَادِي مِنهُما حَتَّى يَعْتَدِي المَظْلُومُ**» [رواه مسلم].

أما اللعن فالصفات المقتضية له ثلاثة: الكفر، والبدعة، والفسق، ولكل واحدة ثلاث مراتب:

الأولى: أن تلعن بالوصف العام، كأن تقول: لعنة الله على الكافرين والمبتدعين والفاسقين.

والثانية: اللعن بأوصاف أخص، كأن تقول: لعنة الله على اليهود والنصارى والمجوس والخوارج وأكلي الربا. وكل ذلك جائز إلا اللعن للمبتدعين ففيه خطر؛ لأن معرفة البدعة فيها غموض، ولم يرد فيها لفظ مأثور فيمنع عنه.

الثالثة: اللعن لشخص معين، وهو خطر، ولا يجوز حتى لو كنت تظنه كافرًا أو فاسقًا أو مبتدعًا، ولكن إذا ثبتت اللعنة شرعًا (أي بنص شرعي)، مثل: فرعون وأبو جهل مثلاً فلا شيء في ذلك، ولا يجوز لعن اليهودي أو الكافر بسبب كفره وهو حي، وذلك لأنه يمكن أن يختم له بالإسلام، وعلى هذا فلا يجوز اللعن إلا في حالات ضيقة جدًّا، فيجب أن نحافظ على ألسنتنا من هذا الداء.

***

إذا أرت أن تكون من أهل العلم والتعلم.. إذا أرت ألا تحرم نور المعرفة؛ فعليك بالطاعة، وإياك والمعصية، فالمعرفة نور يقذفه الله في قلب المؤمن، والمعصية تطفئ ذلك النور كما قال الشافعي- رحمه الله:

شكوت إلى وكيع سوء حفظي ... فأرشـــدني إلى تــرك المعــاصي

وقـال اعلـم بـأن العلـم نـــور ... ونـــور الله لا يـــهدى لعـــاصٍ

* * *

الآن انقضى الثلث الأول من شهر رمضان المعظم، وتطهرت أنفسنا بإذن الله، وتخلينا عما قد يكون عالقًا بها من درن وسوء خلق، وأصبحت مؤهلة لاستقبال حسن الخلق، وجاءت مرحلة التحلي، فلنتهيأ للثلث الثاني ونستقبله، ولنتذكر أننا قد اقتربنا من النهاية، فهو كما اتفقنا الرمضان الأخير، وكما يقال: إن الخيل إذا شارفت نهاية السباق اجتهدت وأسرعت، فلا تكون الخيل أذكي منا، وأوسع فهمًا. فلتكن أحسن أيامنا خواتيمها، ولنَلْقَ الله ﷻ على خير ما يحب أن نكون. فإلى التحلّي:

* * *

١- بر الوالدين

إنهما أبوك وأمك، وحقهما، وما أدراك ما حقهما؟! الذي جاء بعد قضاء الله بألا نشرك به شيئًا، جاء بعد الأمر بالتوحيد: ﴿**وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاهُمَا فَلا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلاً كَرِيمًا**﴾ [الإسراء: ٢٣].

ذات يوم، جاء إلى رسول الله ﷺ أب كبير السن يشكو إليه عقوق ولده فقال: يا رسول الله، كان ضَعِيفًا وكُنتُ قويًّا، وكان فقيرًا وكنتُ غنيًّا، فقدّمتُ له كلَّ ما يُقدِّمُ الأبُ الحاني للابنِ المُحتاج. ولما أصبحت ضعيفًا وهو قوي، وصار غنيًّا وأنا محتاجٌ، بخِل عليَّ بمالِه، وقصّر عني بمعروفه، ثم التفت إلى ابنِه منشدًا:

غـذوتك مولـودًا وعلتـك ... تعـلَّ بـما أدنـي إليـك وتنهـلُ
إذا ليلة نابتك بالشكو لم أبتْ ... لشكـواك إلا ساهـرًا أتململُ
كـأني أنـا المطـروق دونـك ... طرقتَ بـه دوني وعيني تهـملُ
فلما بلغت السن والغاية التي ... إليها مـدى ما كنتُ منك أؤمِّلُ
جعلـت جزائـي منـك جبهًـا ... كـأنك أنـت المـنعم المتفضـلُ
فليتـك إذ لم تَـرعَ حـق أبـوتيَ ... فعلت كما الجار المجاور يفعلُ
فأوليتني حق الجوار ولم تكن ... عـليّ بـمال دون مالـك تبخـلُ

فبكى رسول الله ﷺ وقال: «**مَا مِن حَجَرٍ ولا مَدَرٍ يَسمعُ هَذا إلاَّ بَكَى**». ثم قال للولد: «**أَنْتَ وَمَالُكَ لأَبِيكَ**» [رواه ابن ماجة].

أبوك وأمك.. لا يرضى الله عنك حتى ترضيهما، وحتى لو كنت مجاهدًا في سبيل الله؛ فقد جاء رجل إلى رسول الله ﷺ يستشيره في الغزو، فقال ﷺ: «**أَلَكَ وَالِدَةٌ؟**» قال: نَعَمْ، قال: «**فالْزَمْهَا؛ فإنَّ الجَنَّةَ تَحتَ رِجْلَيهَا**» [رواه الحاكم في المستدرك].

وجاء رجل آخر يطلب البيعة من رسول الله ﷺ على الهجرة وقال: مَا

جئتُك حتَّى أبْكيتُ والدَيَّ، فقال: «**ارْجعْ فأضْحِكْهما كما أبْكَيتَهُما**» [رواه البيهقي في شعب الإيمان].

وعن أبي بكرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**أَلا أُنَبِّئُكُمْ بِأَكْبَرِ الْكَبائِرِ**» **ثَلاثًا، قَالُوا: بَلى يا رَسُولَ الله، قَالَ: «الإِشْراكُ بِالله، وَعُقوقُ الْوالِدَيْنِ» وَجَلَسَ، وَكانَ مُتَّكِئًا، فَقالَ: «أَلا وَقَوْلُ الزّورِ»، قَالَ: فَما زَالَ يُكَرِّرُها حَتّى قُلْنا لَيْتَهُ سَكَتَ**» [متفق عليه].

فإياك ثم إياك من عقوق الوالدين، فلا جنة من دون رضاهما، ولا رضا من الله حتى ترضيهما، إياك والعقوق، وإلا فما لك سوى الذل في الدنيا، ونزول المصائب عليك.. وانظر حولك في أقاربك، في جيرانك، في محيط عملك، انظر وابحث عن العاقين لآبائهم؛ لترى كيف هي حياتهم، وكيف أنها حياة ضنك ومصائب متوالية، ثم انظر وابحث عن أناس صانوا الأمانة، وحفظوا العهد، وبروا الآباء، واسألهم أي هناء، وأي راحة بال يعيشون فيها..إياك وغضبهما؛ فلن ينطق لسانك بالشهادتين حين موتك، وقصة علقمة كلنا يعرفها جيدًا، علقمة ذلك الصحابي الذي شهد مع رسول الله ﷺ المشاهد، ويأتيه الموت، ويلقنه مَن حوله الشهادة. إن علقمة صحابي جليل، ونحن نتحدث عنه الآن ونقول: سيدنا علقمة، تقرّب إلى الله بالجهاد مع نبيه ﷺ، وعاش في كنف النبوة، في ذلك الجو الإيماني العالي الإيمان، ومع هذا لم يشفع له الجهاد، ولا صحابته للنبي ﷺ في أن يفضل زوجته على أمه، وتأتي لحظات النهاية، اللحظة الحاسمة، فلا ينطق علقمة

بالشهادة، وهو الذي كان يصلي خلف رسول الله ﷺ.. فما بالنا اليوم ونحن تفوتنا الفرائض في المسجد، والمعاصي تغطينا، والتقصير في حق الله يُغشّي عيوننا، ومع هذا لا نلقي بالاً لمن ينادي ويهتف: إياك والعقوق.

ويذهب الصحابة إلى رسول الله ﷺ يقولون: يا رسول الله، إن علقمة لا ينطق الشهادة، أدركنا يا رسول الله، فيسألهم المصطفى الذي يدرك سبب عدم انطلاق لسان علقمة بالشهادة: أله أم؟ فيقولون: نعم. فيقول ﷺ: «**آتوني بها**»، فتأتي فيسألها عن حال علقمة معها، ويعرف ﷺ أنه فضّل زوجته عليها فقط في بعض شأنه، فغضبت الأم.

فإياكم وغضبها، إياك ودمعة من عينيها بسببك، فربما تعيش عمرك كله في ضنك بسبب دمعة منها، ربما تأتي يوم القيامة وتجد أعمالك كلها هباء منثورًا بسبب دمعة، أو دعوة منها عليك، فيطلب منها النبي ﷺ أن تسامح علقمة مرة واثنتين، حتى هدد النبي ﷺ بأن يشعل نارًا ويلقي فيها علقمة، فتسامح الأم من قلبها، وبمجرد أن يحدث ذلك ينطلق لسان علقمة بالشهادة، وترقى روحه إلى بارئها..ذلك هو رسول الله ﷺ الذي تدخّل في لحظة موته، أما أنت فمن سيفعل لك ذلك لحظة موتك، ستموت وتلقى الله وتكون الحسرة والندامة، ثم لا ينظر الله إليك يوم القيامة، وحذار؛ فمن نظر الله إليه يوم القيامة لم يعذبه، فلا تكونن ممن خسر رحمة الله بسبب العقوق.

إياك والعقوق؛ فعقوبته في الدنيا يعجلها الله قبل الآخرة، إياك

والعقوق فلن يُقبل لك عمل، ولا تدخل القدس فاتحًا مع من يفتحها من المسلمين حين يدخلونها، إن شاء الله، وعسى أن يكون قريبًا.

لا تَطلُبَنَّ مَعيشَةً بِمَذَلَةٍ وَاربَأ بِنَفسِكَ عَن دَنِيِّ المطلَبِ
وَإِذا افتَقَرتَ فَداوِ فَقرَكَ بِالغِنى عَن كُلِّ ذي دَنَسٍ كَجِلدِ الأَجرَبِ

***

٢ - صلة الأرحام

الأرحام اليوم قطعت وتباعدت حتى إنك تجد أبناء العمومة في حي واحد ولا يعرف أحدهما الآخر، تفككت الأسر، وتفككت بالتالي المجتمعات، وأصبحنا في الأخلاق وصلة الأرحام كأهل الغرب الذين أخذتهم الدنيا حتى من أنفسهم، فلا تجد الأب يعرف أبناءه، ويموت في النهاية فلا يحضرون له جنازة، إذا أردت أن تعرف مدى ما وصلنا إليه، فاذهب إلى ساحات المحاكم؛ لتدرك أننا أصبحنا في الحضيض، الأخ مع أخته في قضايا ميراث لا يريد أن يعطيها حقها، والابن ضد أبيه يريد أن يحجر عليه ليستولي على أمواله، وتلك أسرة بكاملها أبناء عمومة يتناحرون من أجل المال.

تشتت الأسر، وضاعت القيم، وضاع الشرع في قلوب تاهت وتباعدت عن السبيل المستقيم، وتمزقت الأرحام التي تعلقت بعرش الرحمن بعد خلق الأرض وقالت: «**هَذَا مَقَامُ الْعَائِذِ بِكَ مِنْ الْقَطِيعَةِ قَالَ: أَلا تَرْضَيْنَ أَنْ أَصِلَ مَنْ وَصَلَكِ، وَأَقْطَعَ مَنْ قَطَعَكِ**» [متفق عليه].

يقول النبي ﷺ: «**قَالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: أَنَا اللهُ، وَأَنَا الرَّحْمَنُ، خَلَقْتُ الرَّحِمَ، وَشَقَقْتُ لَهَا مِنْ اسْمِي، فَمَنْ وَصَلَهَا وَصَلْتُهُ، وَمَنْ قَطَعَهَا بَتَتُّهُ**»

[رواه الترمذي].

وقال ﷺ: «**مَنْ سَرَّهُ أَنْ يُبْسَطَ لَهُ رِزْقُهُ، أَو يُنْسَأَ لَهُ فِي أَثَرِهِ، فَلْيَصِلْ رَحِمَهُ**» [متفق عليه]. وقيل لرسول الله ﷺ: «**أيُّ الناسِ أفْضلُ؟ قال: أتقاهُم للهِ، وأوْصَلُهُم لرَحِمِه، وآمَرُهُم بالمَعروفِ، وأنهاهُم عنْ المُنكَرِ**»

[رواه أحمد بإسناد حسن].

وقال ﷺ: «**إِنَّ الصَّدَقَةَ عَلَى الْمِسْكِينِ صَدَقَةٌ، وَإِنَّهَا عَلَى ذِي الرَّحِمِ اثْنَتَانِ: صَدَقَةٌ وَصِلَةٌ**» [رواه النسائي].

وانظروا إلى نماذج الصحابة حين يريدون التصدق، وقارنوا أين نحن اليوم منهم، وأين نحن من الإسلام الصحيح؟ فهذا أبو طلحة أراد أن يتصدق بحائط- أي حديقة- كان يعجبه؛ عملاً بقوله تعالى: ﴿**لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ**﴾ [آل عمران: ٩٢]، **فَقَامَ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ فَقَالَ: «يَا رَسُولَ اللهِ إِنَّ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى يَقُولُ: «لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ» وَإِنَّ أَحَبَّ أَمْوَالِي إِلَيَّ بَيْرُحَاءَ، وَإِنَّهَا صَدَقَةٌ للهِ أَرْجُو بِرَّهَا وَذُخْرَهَا عِنْدَ اللهِ، فَضَعْهَا يَا رَسُولَ اللهِ حَيْثُ أَرَاكَ اللهُ. قَالَ: فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «بَخٍ ذَلِكَ مَالٌ رَابِحٌ، ذَلِكَ مَالٌ رَابِحٌ، وَقَدْ سَمِعْتُ مَا قُلْتَ، وَإِنِّي أَرَى أَنْ تَجْعَلَهَا فِي الأَقْرَبِينَ»، فَقَالَ أَبُو طَلْحَةَ: أَفْعَلُ يَا رَسُولَ اللهِ، فَقَسَمَهَا أَبُو طَلْحَةَ فِي أَقَارِبِهِ وَبَنِي عَمِّهِ**». [رواه البخاري].

أرأيتم أخواني وأخواتي؟ يقسم بستانه على أقاربه صدقة في سبيل الله حتى ينفق مما يحب؛ حتى ينال البر من الله ﷻ، فأين نحن من ذلك؟

قال ﷺ: «**إِنَّ أَفْضَلَ الصَّدَقَةِ صَدَقَةٌ عَلَى ذِي الرَّحِمِ الْكَاشِحِ**» [رواه أحمد والطبراني في الكبير].

وروي أن عمر ﷺ كتب إلى عماله: مروا الأقارب أن يتزاوروا ولا يتجاوروا.

وإنما قال ذلك لأن التجاور يورث التزاحم على الحقوق، وربما يورث الوحشة وقطيعة الرحم.

فلنتقِ الله، ولننظرْ يوم نقف بين يديه، وحين نعبر الصراط، فتقف الرحم على أوله وتقول: أريد حقي، وأنّى لنا ذلك!

***

٣ - الإحسان إلى الجار

امرأة مسنة تعيش وحدها في شقة صغيرة، فأبناؤها بعد أن تزوجوا عاش كل واحد منهم في مدينة مختلفة، وأصبحت زياراتهم لها قليلة ومحدودة للغاية، والأم تجاوز سنها الثمانين، تمر الأيام دون أن يطرق بابها أحد.

وذات يوم، هاتفها أحد أبنائها فلم ترد عليه، فاتصل بإحدى الجارات لتذهب إلى والدته لترى لماذا لا ترد، فتذهب الجارة وتعود لتقول له: إنها لا ترد، وإنها لم تلحظ حركة أو صوتًا في الشقة منذ عدة أيام، فيطلب منها

الابن أن تفتح الشقة حتى لو بكسر الباب، فترفض الجارة، ويضطر الابن أن يسافر إلى أمه ليرى ما الأمر، فيكسر الباب ليجد الأم ميتة منذ أيام- وكان هذا واضحًا من رائحة الجثة- فلطم الابن وجهه، وجمع إخوته تليفونيًّا ليودعوا الأم التي ماتت دون أن يدري بها أحد. وهذا في بلاد المسلمين.

كم مرة سمعت هذه القصة؟ أعتقد أنها ما عادت غريبة على الأسماع، ولن أتحدث هنا عن جحود الأبناء- فقد مر بنا- وإنما حديثنا عن الجار.

أرملة مسكينة تبيت هي وأولادها كل يوم يتضورون جوعًا، وتضطر إلى غلق النوافذ حتى لا يسمع صراخهم أحد من الجيران، الذين هم في الأصل لا يعلمون عنها شيئًا، ولا يهمهم أن يعلموا.

هل سمعت مثل هذه الحكاية الأخرى؟ للأسف إنها ليست حكاية من نسج الخيال، بل إنها واقع في آلاف من البيوت، وربما ملايين تنام كل يوم جوعًا دون أن يدري بهم أحد. وهذا أيضًا في بلاد المسلمين.

حكاية أخرى اقرءوها وتدبروا.. حين ولِيَ عمر بن عبد العزيز حكم المسلمين فاضت المخازن بالغلال، حتى لم يعد هناك مكان للمزيد، فوزع الفائض على فقراء المسلمين حتى لم يعد هناك فقير.. وأعطى بيتًا لكل من ليس له بيت، وزوّج الشباب، وأعطى فقراء أهل الكتاب، ثم أمر بنثر الغلال على رءوس الجبال حتى تأكل الطير، حتى لا يقال: جاعت الطيور في بلاد المسلمين.

فانظروا- يرحمكم الله- وقارنوا بين الصورتين، واعلموا أيهما يجب أن تكون بلاد المسلمين حقًّا؟ في ظل الجاهلية الحديثة جاهلية القرن العشرين، أم في ظل الحكم الإلهي الذي لم تجعْ فيه الطير على قمم الجبال من خير بلاد المسلمين؟

لن أذكر المزيد، وإنما سأذكر طائفة من الأحاديث النبوية والتوجيهات الإسلامية في حق الجار، قال ﷺ: «**أَحْسِنْ جِوَارَ مَنْ جَاوَرَكَ تَكُنْ مُسْلِمًا**» [رواه ابن ماجة]، وقال ﷺ: «**مَا زَالَ جِبْرِيلُ يُوصِينِي بِالْجَارِ حَتَّى ظَنَنْتُ أَنَّهُ سَيُوَرِّثُهُ**» [متفق عليه]، وقال ﷺ: «**والله لاَ يُؤْمِنُ، وَالله لاَ يُؤْمِنُ، وَالله لاَ يُؤْمِنُ!**» **قِيلَ: مَنْ يَا رَسُول الله؟ قَالَ: «الَّذِي لاَ يَأْمَنُ جَارُهُ بَوَائِقَهُ»** [متفق عليه]، وجاء رجل إلى النبي ﷺ يشكو جاره، فقال له النبي ﷺ: «**اصْبِرْ**»، **ثم قال له في الثالثة أو الرابعة: «اطْرحْ مَتاعَك في الطريقِ»، قال : فجعل الناس يمرون به ويقولون: ما لكَ؟ فيقال: أذاه جارُه، قال: فجعلوا يقولون: لعَنَه اللهُ، فجاءه جاره فقال له: رُدَّ متاعَك، فواللهِ لا أعودُ**». [رواه ابن حبان في صحيحه].

فبالله عليكم، كم من المسلمين اليوم يجب أن يحمل متاعه في الطريق هربًا من أذى جاره، ولكن- للأسف- لن يجد من يهون عليه ما هو فيه، وإنما ربما يرمونه بالجنون.

إن حق الجار في الإسلام ليس فقط كف الأذى عنه، وإنما أيضًا تحمل الأذى منه، والصبر عليه، والنصح له، والرفق به، وأن يعوده في مرضه،

ويشاركه أحزانه وأفراحه، ويصفح عن زلاته، ولا يتطلع إلى عوراته، ولا يتبعه النظر فيما يحمله إلى بيته، ويستر ما انكشف من عوراته. فأين نحن من حق الجار؟

***

روي أن رجلاً قصد الحج فاستودع إنسانًا مالاً، فلما عاد طلبه منه، فجحده المستودَع، فأُخبِر بذلك القاضي إياس، فقال: أعَلِمَ بأنك قد جئتني؟ قال: لا، فقال: عد إليَّ بعد يومين، ثم إن القاضي إياسًا بعث إلى ذلك الرجل فأحضره، ثم قال له: قد تحصلت عندي أموال كثيرة لأيتام وغيرهم وودائع للناس، وإني مسافر سفرًا بعيدًا، وأريد أن أودعها عندك؛ لما بلغني من دينك وتحصين منزلك، فقال الرجل: حبًا وكرامة، قال إياس بن معاوية: فاذهب وهيئ موضعًا للمال، وقومًا يحملونه. فذهب الرجل وجاء صاحب الوديعة، فقال له القاضي إياس: امضِ إلى صاحبك وقل له: ادفع إليَّ مالي وإلا شكوتك للقاضي إياس.

فلما ذهب وقال له ذلك، دفع إليه ماله، واعتذر إليه، فأخذه وأتى إلى القاضي إياس وأخبره، ثم بعد ذلك أتى الرجل ومعه الحمالون لطلب الأموال التي ذكرها له القاضي، فقال له القاضي: بدا لي ترك السفر، امضِ لشأنك، لا أكثر الله في الناس مثلك.

***

٤- الصـــــدق

الصدق من أعلى صفات مكارم الأخلاق، وهو من صفات الرجال، ولا ينأى عنه إلا منافق، وعكسه الكذب، وهو ليس من صفات المؤمن بحال من الأحوال، وهو رذيلة يجب أن ينأى عنها المؤمن، وفي كتاب الله وسنة نبيه ﷺ ما يؤكد تلك المعاني السامية لصفة الصدق والصادقين، قال تعالى: ﴿**رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ**﴾ [الأحزاب: ٢٣]. وحين أراد الله ﷻ أن يثني على الأنبياء قال: ﴿**وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا**﴾ [مريم: ٤١]. وقال: ﴿**وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولاً نَبِيًّا**﴾ [مريم: ٥٤]، وقال ﷻ: ﴿**وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا**﴾ [مريم: ٥٦].

وقال ﷺ: «**إِنَّ الصِّدْقَ يَهْدِي إِلَى البِرِّ، وَإِنَّ البِرَّ يَهْدِي إِلَى الجَنَّةِ، وإِنَّ الرَّجُلَ لَيَصْدُقُ حَتَّى يَكُونَ صِدِّيقًا، وَإِنَّ الكَذِبَ يَهْدِي إِلَى الفُجُورِ، وَإِنَّ الفُجُورَ يَهْدِي إِلَى النَّارِ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَكْذِبُ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللهِ كَذَّابًا**» [متفق عليه].

وقال ابن عباس- رضي الله عنهما: أربع من كن فيه فقد ربح: الصدق والحياء وحسن الخلق والشكر.

وقال أبو عبد الله الرملي: رأيت منصورًا الدينوري في المنام، فقلت له: ما فعل الله بك؟ قال: غفر لي، ورحمني، وأعطاني ما لم أؤمل. فقلت له: أحسن ما توجه العبد به إلى الله ماذا؟ قال: الصدق، وأقبح ما توجه به الكذب.

والصدق عند الغزالي على ستة معانٍ:

الأول: صدق في القول: وهو صدق اللسان في الإخبار والحديث، فلا ينقل إلا الصدق، ولا يتحدث إلا به.

الثاني: صدق في النية والإرادة: وهو الإخلاص في العبادة، والتوجه لله وحده، فلا يبتغي بها عرضًا دنيويًّا.

الثالث: صدق العزم: ومعناه أن تنوي إذا تغير الحال أن تفعل كذا وكذا، كأن تقول: إذا مكنني الله من الحكم سأعدل، أو إذا لقيت الأعداء سأثبت حتى الشهادة، أو إذا أعطاني الله مالاً سأنفق منه الكثير على الفقراء.

الرابع: صدق الوفاء بالعزم، ومثال ذلك: أنس بن النضر حين لم يتمكن من المشاركة في غزوة بدر قال: أما والله لئن أراني الله مشهدًا مع رسول الله ليرين الله ما أصنع، فشهد أحدًا في العام التالي، فاستقبله سعد بن معاذ فقال: يا أبا عمرو، إلى أين؟ فقال أنس: واهًا لريح الجنة، إني أجد ريحها دون أحد، فقاتل حتى قتل، فوُجِد في جسده بضع وثمانون ما بين رمية وضربة وطعنة، فقالت أخته بنت النضر: ما عرفت أخي إلا بشامة، أو ببنانه. فنزلت هذه الآية: ﴿**رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً**﴾ [الأحزاب: ٢٣].

الخامس: الصدق في الأعمال: وهو أن تستصحب النية في كل عملك، وأن تكون صادقًا إلى النهاية لا يعتريه رياء، أو تشوبه شائبة.

السادس: وهو أعلى الدرجات، وهو أن تكون صادقًا في مقامات

العبادة السامية: كالزهد والخشية والخوف والرجاء والتوكل والحب، وفي سورة الحجرات: ﴿**إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ**﴾[الحجرات: ١٥]. اللهم اجعلنا من الصادقين في كل وقت وحين.

***

٥- الصـــــبر

يقول الله ﷻ: ﴿**إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ**﴾ [الزمر: ١٠]، فما من قربة من القربات إلا وأجرها بتقدير وحساب إلا الصبر؛ فإنه بغير حساب. وقال تعالى: ﴿**وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ**﴾ [الأنفال: ٤٦]، ومن يكن الله معه فمن يكون عليه؟ وقال تعالى: ﴿**أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ**﴾ [البقرة: ١٥٧].

والصبر ثلاثة أنواع: صبر على الطاعة، وصبر عن المعصية، وصبر على البلاء.

والإنسان دائمًا إما على حال يسره ويرضيه، أو حال يكدره، أو يصعب عليه، وهو في هذين الحالين إما أن يكون على شكر، وإما أن يكون على صبر، وبهذا النظر قال ابن مسعود ﷺ: الإيمان نصفان: نصف صبر، ونصف شكر.

والإنسان خلقه الله ﷻ في كبد وتعب، وجعل سبحانه الدنيا دار ابتلاء واختبار، لا دار مقام، وإلا لو كان كل ما فيها حلو مذاقه، وسهل الوصول

إليه، وميسر أمره، والكل فيها سعيد بحاله، وراضٍ بماله، فلماذا إذن يكون الشوق إلى الجنة والعمل لها؟

إن الطالب الذي يجد ويجتهد طول العام، ويسهر الليالي ولا ينام في حين ينام غيره، أو يستمتع بوقته بشكل آخر، ثم هو من دروسه لمذاكرته لكده وتعبه، وهو في كل ذلك يفعله أملاً في أن يستريح آخر العام، وعامًا بعد عام يجتهد حتى يستريح في بقية عمره بمكانة عالية، يصل إليها نتيجة جده واجتهاده، فهو قد تحمل مشاق العمل في البداية حتى يستريح في النهاية، وكذلك الإنسان عامةً مطلوب منه أن يكد ويتعب ويُحرّم على نفسه المحرمات، ويصبر على ذلك، ويفرض على نفسه الطاعات، ويصبر على ذلك، ويتحمل أذى الناس، ويصبر ويتحمل متطلبات نفسه ومشاكستها معه، ويصبر ويحرم على نفسه ملذات الحرام ويصبر، كل ذلك لأنه يريد أن يستريح في النهاية، حيث الجنة، وحيث ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

فمن يريد النجاح دون أن يدفع الثمن؟ ومن يريد الراحة دون أن يدفع الثمن؟ لا أحد، ولن يستطيع أحد إن رغب.

ومن أراد الدنيا هكذا سهلة يسيرة بلا منغصات، فإنه لا يفهم، ومن يحسب أن هناك من يعيش فيها بلا منغصات، فإنه أيضًا لا يفهم، فالغني تعِب حائر خائف من أن يذهب ماله، ويريد المزيد، وحزين على صحته التي تضيع يومًا بعد يوم، وعلى ماله الذي يخاف أن يضيع، أو حتى يموت

ويتركه، ثم هو في النهاية يحمله فوق ظهره حين ملاقاة الله يوم الحساب. هل أدّى حقه وإلا فالهلاك، والفقير مهموم حزين على حاله؛ فهو يحسب أن من معه المال أكثر هناءة منه، وهو في ذلك غير موفق، والصحيح في ضيق من شيء ما، والمريض في ضيق أيضًا من شيء آخر.. وهكذا هي الدنيا، وهكذا أرادها الله..

ثم إننا- شئنا أم أبينا- أمر الله نافذ، فإن صبرنا نلنا رضاه، وأجرنا عليه، قال ﷺ: «**مَا مِنْ مُسْلِمٍ تُصِيبُهُ مُصِيبَةٌ فَيَقُولُ مَا أَمَرَهُ اللهُ: «إِنَّا للهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ»، اللَّهُمَّ أْجُرْنِي فِي مُصِيبَتِي، وَأَخْلِفْ لِي خَيْرًا مِنْهَا إِلَّا أَخْلَفَ اللهُ لَهُ خَيْرًا مِنْهَا**» [رواه مسلم]، وقال ﷺ: «**يقولُ اللهُ ﷻ: إذا ابْتليتُ عَبدِي بِبَلاءٍ فصَبرَ ولَمْ يَشْكُنِي إلى عُوَّادِه، أبْدلْتُه لَحمًا خيرًا من لَحمِه، ودمًا خيرًا من دَمِه، فإذا أبْرَأْتُه أبْرَأْتُه ولا ذَنبَ عليه، وإن تَوفَّيْتُه فإلى رحْمَتي**» [رواه مالك في الموطأ]، وقال داود عليه السلام: يا رب، ما جزاء الحزين الذي يصبر على المصائب ابتغاء مرضاتك؟ قال: جزاؤه أن ألبسه لباس الإيمان فلا أنزعه عنه أبدًا. [ذكره الغزالي في الإحياء].

ولست أرى في هذا المقام خيرًا من قول الله ﷻ: ﴿**إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ**﴾.

والصبر إنما يكون عند الصدمة الأولى، وليس بعد أن يخطئ ويزل لسانه بما يغضب الله ﷻ، فذات يوم مَرَّ النَّبِيُّ ﷺ بِامْرَأَةٍ تَبْكِي عِنْدَ قَبْرٍ فَقَالَ: «**اتَّقِي اللهَ وَاصْبِرِي**»، قَالَتْ: إِلَيْكَ عَنِّي، فَإِنَّكَ لَمْ تُصَبْ بِمُصِيبَتِي. وَلَمْ

تَعْرِفْهُ. فَقِيلَ لَهَا: إِنَّهُ النَّبِيُّ ﷺ؛ فَأَتَتْ بَابَ النَّبِيِّ ﷺ، فَلَمْ تَجِدْ عِنْدَهُ بَوَّابِينَ؛ فَقَالَتْ: لَمْ أَعْرِفْكَ. فَقَالَ: «**إِنَّمَا الصَّبْرُ عِنْدَ الصَّدْمَةِ الأُولَى**» [متفق عليه].

الصبر ليس كله محمودًا، فهو في بعض الأحيان يكون مكروهًا، والصبر المكروه هو الصبر الذي يؤدي إلى الذل والهوان، أو يؤدي إلى التفريط في الدين، أو تضييع بعض فرائضه، أما الصبر المحمود، فهو الصبر على بلاء لا يقدر الإنسان على إزالته، أو التخلص منه، أو بلاء ليس فيه ضرر بالشرع.

أما إذا كان المسلم قادرًا على دفعه، أو رفعه، أو كان فيه ضرر بالشرع، فصبره حينئذ لا يكون مطلوبًا، قال الله تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا**﴾ [النساء: ٩٧].

***

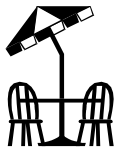

استراحة

يوم في حياة صائم

السَحَر والسّحُور والفجر

١- عند الأذان: ردد الأذان، وتعايش مع المعاني السامية لكل نداء: «الله أكبر» من كل ما دونه، وكرر مع المؤذن، ثم ردد الشهادة: أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، وأعلن التوحيد ثم قل: لا حول ولا قوة إلا بالله مع كل حي على الصلاة، حي على الفلاح، فلا حول ولا قوة إلا بالله، أي لا تلبية للنداء، ولا قدرة لي على ذلك إلا بحول الله وقوته. وهذا منتهى الاستسلام لله ﷻ، استشعر تلك المعاني وأنت تستمع إلى الأذان وتردده، ثم كرر التكبير الذي يذكرك مرة أخرى بأنه إذا اعتراك شاغل من شواغل الدنيا، فلا أكبر من الله، ولا أولى منه الآن بذلك الوقت، فكل الدنيا إلى زوال، والكل هين، ولا أكبر منه سبحانه، والمفترض أنك الآن على وضوء، وإلا فلتنهض وتتوضأ لتسرع إلى المسجد، وتكون من المتسابقين على الصف الأول، أو تنهضي وتسرعي إلى مكان صلاتك في بيتك ومحرابك؛ لتكوني بين يدي الله بشوق وحب.

٢- القيام للصلاة بشغف وشوق ومعرفة بين يدي من تقف، وتوقن أنك تقف بين يدي الجليل العزيز الرحمن الرحيم، فلتكن بين الخوف من غضبه وتقصيرك، والرجاء في عفوه وحلمه ورحمته، واستشعار قول الله ﷻ: ﴿وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ [الإسراء: ٧٨]. أي

مشهودًا من الملائكة، فأنت لست وحدك الآن الذاكر القائم بين يدي المولى، فهناك في كل شبر، وفي كل بقعة كائنات تسبح وتهلل وتذكر راكعة ساجدة شاكرة، فأنت معهم حتى الأرض التي تضع عليها جبهتك ساجدًا لله تسبح بحمده، وتسجد له، فأنت في حالة انسجام وتواؤم مع الكون كله في التسبيح والذكر لله ﷻ.

٣- أذكار الصباح بعد أداء الصلاة: ارفع يديك وأنت تقولها، لا ترددها بلسانك، اذكرها بقلبك أولاً، عش مع كل ذكر، وحينما تقول: رضيت بالله ربًّا، وبالإسلام دينًا، وبمحمد ﷺ نبيًّا ورسولاً، استشعر حالة الرضا والاطمئنان، وانتظر بعد أن تنتهي، انتظر قليلاً ليرد الله ﷻ عليك، يرد عليك بالرضا، وبأنه سيرضيك، استشعر أنك سمعته وأدركت أن تلك اللحظات تساوي الدنيا بما فيها، إنه التجلي الذي نتحدث عنه حين تستشعر أنك والملكوت على خط واحد، وفي اتجاه واحد، وفي تناغم واضح، إنه خلق الله الذي إن شذَّ عنه أحد لكان ما كان عليه الناس اليوم من حالة صراع داخلي موحشة، وهم لا يدركون أنهم في طريق والكون كله في طريق، ويعالج كلَّ هذا الوقوفُ بين يدي الله تعالى، في أوقات هو حددها ولم يتركها لنا، فإن أردت أن تجرب فلتقم وقتما أراد، ولتفعل ما يريد، وستجد ساعتها ما كنت تتمنى وتريد.

٤- حفظ ورد معين من القرآن الكريم، أو قراءة ذلك الورد، واجتهد ولا تقل: لا أستطيع، فلو طلبك رئيسك في عملك أن تقابله في الشركة قبل الفجر بساعة؛ لأنه يوجد بعض الأعمال التي يريدك أن

تنجزها، لذهبت إليه ربما قبل الموعد، فإنك تستطيع، فحاول وحاول حتى يكون ديدنك ألا تنام قبل أن تعرض نفسك على كتاب الله يوميًّا، وتقرؤه، وتسأل نفسك: أين أنت منه؟

٥- الانتظار إلى وقت الإشراق مع كتاب الله تعالى، ثم صلاة ركعتي الصبح؛ إنهما حجة وعمرة تامتان. فكم من العُمرات ضيعناها! وكم من أيام حج ضيعناها! وأنت جالس في بيتك، ومع زوجك وأولادك تصلي الصبح، ثم تمكث في المسجد أو البيت حتى شروق الشمس تاليًا لكتاب الله، ذاكرًا له، مسبحًا حامدًا، ثم تصلي ركعتين، وتختم، وتكون قد أديت الحج والعمرة، وعدت كيوم ولدتك أمك، وهنيئًا لك.

☪ الضحى

١- الاستيقاظ قبل الساعة العاشرة صباحًا.

٢- قراءة القرآن حتى الساعة العاشرة والنصف.

٣- القراءة في أحد تفاسير القرآن إلى الساعة الحادية عشرة.

٤- صلاة الضحى، قال الرسول ﷺ: «**صَلاةُ الأَوَّابِينَ حِينَ تَرْمَضُ الْفِصَالُ**» [رواه مسلم].

٥- قراءة القرآن، والاستعداد لصلاة الظهر، فأنت في رباط مادمت تنتظر الصلاة.

☪ الظهر

١- **مع أذان الظهر**: الحرص على ترديد أذان المؤذن، واستشعار نفس

المعاني التي ذكرناها آنفًا في أذان الفجر.

٢- **الدعاء بين الأذان والإقامة**، فهو دعاء لا يُردّ بإذن الله.

٣- **صلاة السنن الرواتب**: وهن أربع ركعات قبل الظهر، واثنتان بعدها، فمن حافظ عليهن حرّمه الله على النار.

٤- **الحرص على أذكار الصلاة**، والمكوث في المصلى، فالملائكة تستغفر لك ما دمت في مصلاك طاهرًا.

٥- **مراجعة ما تم حفظه من وردك اليومي** من كتاب الله تعالى بعد صلاة الفجر.

٦- **متابعة القراءة في كتاب التفسير الذي بدأت به.**

٧- **القيلولة** إن أمكن وذلك كي تستطيع أن تعيد الكرة، وأن تقف وتتابع عبادتك، ولاتّباع السنة في ذلك.

٨- **الاستعداد لصلاة العصر، مع تلاوة كتاب الله إلى وقت الأذان.**

☪ العصر

١- **مع أذان العصر**: متابعة المؤذن، وترديد النداء وراءه والدعاء، وتذكر قول الله تعالى: ﴿**حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلاةِ الْوُسْطَى**﴾ [البقرة: ٢٣٨].

٢- **أداء الصلاة مع الذكر بعدها**، وتلاوة القرآن نصف ساعة تقريبًا بعد الصلاة.

٣- **من خير ما يستغل به وقت العصر** سماع إذاعة القرآن الكريم، وتدوين الفوائد.

٤- **إعداد الإفطار**، واستشعار قول الرسول ﷺ: «**مَنْ فَطَّرَ صَائِمًا، كَانَ لَهُ مِثْلُ أَجْرِهِ، غَيْرَ أَنَّهُ لاَ يُنْقَصُ مِنْ أَجْرِ الصَّائِمِ شَيْءٌ**» [رواه الترمذي]، وقوله ﷺ: «**فِي كُلِّ ذَاتِ كَبِدٍ رَطْبَةٍ أَجْرٌ**» [رواه البخاري]، واستشعار أن ذلك قربة لله بإخلاص النية، واحتساب الأجر فيها.

☪ المغرب

١- **الحرص على الدعاء**؛ لقول الرسول ﷺ: «**للصَّائِمِ عِنْدَ فِطْرِهِ دَعْوَةٌ مَا تُرَدُّ**» [رواه البيهقي في شعب الإيمان]. ولا تنس المسلمين من دعائك؛ فدعوة المسلم لأخيه بظهر الغيب مستجابة، وللداعي مثل ما دعا به لأخيه.

٢- **عند الأذان يستحب التبكير بالإفطار**؛ لقول الرسول ﷺ: «**لا يَزَالُ النَّاسُ بِخَيْرٍ مَا عَجَّلُوا الْفِطْرَ**» [متفق عليه].

٣- **الترديد مع المؤذن**.

٤- **اتباع السنة عند الإفطار**، وذلك بالإفطار على رطب، فإن لم تجد فعلى تمر.

٥- **التبكير لصلاة المغرب**، وعدم الانشغال عنها بالأكل والاسترخاء، والحرص على أداء الأذكار بعدها.

٦- **غالبًا ما يكون وقت ما بعد المغرب** وقتًا لتجمُّع الأهل،

فليستغل فيما ينفع، واحذر من إضاعته في المنكرات والملهيات؛ فما هكذا تُشكر نعمة الفطر.

العشاء

١- **الاستعداد لصلاة العشاء والتراويح** مع اتّباع السنة في ذلك، والحرص على أداء الأذكار بعد الصلاة.

٢ - **أعمال البر مع مجموعة من الأصدقاء** تكون قد اتفقت معهم عليها مسبقًا قبل رمضان، من توزيع صدقات، أو زيارة مستشفيات عامة، أو زيارة الفقراء والتعرف على أحوالهم ومواساتهم بقدر الإمكان، وصلة الرحم المقطوعة، وأعمال المصالحة بين المتخاصمين، على أن يكون ذلك يوميًّا، ولا يزيد وقته عن ساعة ونصف، حتى يكون النوم قبل الساعة الحادية عشرة؛ ليكون ذلك عونًا على قيام الثلث الأخير من الليل.

وقبل النوم:

أ- الوضوء.

ب- أذكار النوم.

ج- لا تنس وقفة محاسبة ليوم غربت عليك شمسه، نقص فيه عمرك ولم يزد عملك، وتذكر يومًا فات من هذا الشهر: ماذا أودعت فيه من العمل الصالح؟

ثلث الليل الأخير

قال تعالى: ﴿**أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الآخِرَةَ**

﴿وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ﴾ [الزمر: ٩]. إن دقائق الأسحار غالية فلا ترخصها بالغفلة، فأحيها بصلاة ودعاء واستغفار، ومن ذلك:

١- **الاستيقاظ قبل الفجر**، والحرص على اتباع السنة في أذكار الاستيقاظ من النوم- السواك- قراءة الآيات من آخر سورة آل عمران: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لِأُولِي الأَلْبَابِ ۞ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ۞ رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ۞ رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الأَبْرَارِ ۞ رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ ۞ فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ثَوَابًا مِنْ عِنْدِ اللهِ وَاللهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ﴾ [آل عمران: ١٩٠-١٩٥].

إيقاظ الأهل للصلاة، وإطالة القيام كما فعل الرسول ﷺ.

٢- **قبل أذان الفجر تناول السحور**، وينبغي تأخيره؛ لورود ذلك عن النبي ﷺ، وتذكر قوله سبحانه: ﴿وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالأَسْحَارِ﴾ [آل عمران: ١٧].

٣- **التهيؤ لصلاة الفجر**.

فرص لصاحبات الأعذار:

١- الدعاء فهو العبادة.

٢- ذكر الله: الاستغفار والتسبيح والتهليل والتكبير.

٣- كثرة الصلاة على النبي ﷺ.

٤- تحويل العادات إلى عبادات بالنية، قال ﷺ: «**إِنَّمَا الأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ**» [رواه البخاري].

٥- صلة الأرحام، والعطف على المساكين.

٦- تفطير الصائمين؛ لقوله ﷺ: «**اتَّقُوا النَّارَ وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ**» [متفق عليه].

٧- الصدقة؛ لقوله ﷺ: «**مَا نَقَصَ مَالُ عَبْدٍ مِنْ صَدَقَةٍ**» [رواه الترمذي].

٨- بر الوالدين، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر.

٩- البعد عن المعاصي قدر المستطاع.

١٠- أذكار الصباح والمساء، وأذكار الأحوال.

***

٦- الشـــكر

الشكر قرين الذكر، وهو مرتبة من مراتب العابدين، قال تعالى: ﴿**فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلا تَكْفُرُونِ**﴾ البقرة: ١٥٢]، وقال تعالى: ﴿**مَا يَفْعَلُ اللهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ**﴾[النساء: ١٤٧]. ولعظم مرتبة الشكر ومنزلته عند الله ﷻ طعن إبليس اللعين في الخلق فقال: ﴿**وَلا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ**

﴿شَاكِرِينَ﴾ الأعراف: ١٧].

وقطع الله ﷻ على نفسه بالمزيد للشاكرين ولم يستثنِ، واستثنى في أشياء أخرى، فقال سبحانه: ﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ﴾ إبراهيم: ٧]، واستثنى في الإغناء والإجابة والرزق والمغفرة والتوبة، فقال تعالى: ﴿فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شَاءَ﴾ التوبة: ٢٨]، وقال: ﴿فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ﴾ [الأنعام: ٤١]، وقال: ﴿يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [البقرة: ٢١٢]، وقال: ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨]، وقال: ﴿وَيَتُوبُ اللهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ﴾ [التوبة: ١٥].

والشكر حتى يتم يلزمه أولاً المعرفة بالخالق جل شأنه، وإلا فكيف تشكر من لا تعرف قدره وشأنه؟ فهل نظرت إلى السماوات وعرفت قدرة خالقها، وكيف رفعها بلا عمد؟ هل سألت نفسك يومًا: لمَ جعل الماء نسبة المالح على الأرض أكثر من نسبة الماء العذب؟ إنه سبحانه لو لم يفعل ذلك لعطب الماء كله بعد فترة، وانتهت الحياة على سطح الأرض منذ زمن بعيد، ولذلك جعل الماء المالح وكأنه مخزن كبير يتبخر بفعل أشعة الشمس بقدَرٍ يقدره الله، وينزل بقَدَر؛ ليقضي حاجة الإنسان والحياة والنبات.

أتدري لو كانت الشمس أبعد من مكانها بقليل؟ إذن لتجمد كل شيء على سطح الأرض.

أتدري لو اقتربت؟ إذن لاحترق كل شيء.

أتدري لو كان القمر أبعد أو اقرب؟ إذن لاختلَّ نظام الحياة على وجه

الأرض؟ هل نظرت في نفسك؟﴿ وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلا تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات: ٢١]. تُرى لو كانت عملية التنفس تابعة لإرادة الإنسان، فكيف يمكن أن ينام أو يغفل لحظة؟ ولو كانت دقات قلبك أعلى بقليل مما هي عليه - وهو مضخة من أقوى المضخات - فكيف يمكن أن تكون عليه حياتنا؟ وإذا تفكرت في عينيك، هل كنت تحب أن تكون رؤيتهما أكبر مما هما عليه؟ إذن لرأيت آلاف وملايين الكائنات السابحة في الهواء من حولك، ولاستحالت عندك الحياة بعدها.. المعدة وما تفعله من عملية هضم دقيقة، ثم يذهب الغذاء إلى كل جزء في الجسم، وذلك وأنت نائم دون أن تدري شيئًا عن تلك العملية الدقيقة.

أذكُرُ لك شيئًا آخر.. بكم تبيع عينك؟ وبكم تبيع قلبك؟ وبكم تبيع أذنك؟ أظن أن ما تملكه يساوي الملايين.. ألا يلهج لسانك بعد كل هذا بشكر المنعم على نعمته؟! ألا نستحي من الله أن نقول: وماذا أعطانا كي نشكر عليه؟! أو نذكرها باللسان بضجر: الحمد لله على كل حال. وكأننا الفقراء المقهورون المظلومون!!

لذلك قال موسى عليه السلام في مناجاته: إلهي، خلقت آدم بيدك، وفعلت وفعلت، فكيف أشكرك؟ فقال الله ﷻ: علم أن كل ذلك مني فكانت معرفته شكرًا.

ولما قالت عائشة- رضي الله عنها- للنبي ﷺ: أليس قد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟! فما هذا البكاء في السجود، وما هذا الجهد

الشديد؟ قال ﷺ: «**أَفَلاَ أَكُونُ عَبْدًا شَكُورًا**» [رواه مسلم]، فلتلهج ألسنتنا وقلوبنا بالشكر، فهو وحده سبحانه المستحق للشكر والعرفان.

وقد قلنا: إن مقتضى الشكر العلم، وكذلك فالصارف عن الشكر هو الجهل، الجهل بالخالق الرازق القادر المنعم، فهؤلاء لا يشعرون بنعم الله عليهم إلا إذا فقدوها، فلا يعلمون قيمة الإبصار إلا بعد العمى، ولا قيمة حاسة الشم إلا بعد فقده، وساعتها يظل يقسم أنه لو عادت إليه تلك النعم لظل يشكر الله عليها مدى حياته، فما بالنا بنعم لا تعد ولا تحصى؟ ولننظر حولنا لنجد من يتمنى لو يستطيع أن يقف على رجليه، ويسعى بهما إلى المسجد، أو يتمنى مجرد قضاء حاجته دون أن يساعده أحد.

فلله الفضل والمنة، فلنحمده ليس باللسان كما يظن البعض أن الشكر معناه: كلمة الحمد لله، ولكن الشكر معناه: أن تستخدم النعمة التي وهبها الله إياك في طاعته، وحيث يرضيه.

***

٧ – المراقبـــة

والمراقبة معناها أن يستحضر الإنسان معية الله له في كل أحواله، وقد سأل جبريل عليه السلام عن الإحسان في الحديث المشهور، فقال ﷺ: «**أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاك**» [متفق عليه]، وقال تعالى: ﴿**إِنَّ اللهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا**﴾ [النساء: ١]، وقال تعالى: ﴿**أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللهَ يَرَى**﴾ [العلق: ١٤].

وحكي أن زليخا لما خلت بيوسف عليه السلام قامت فغطت وجه صنم كان لها، فقال لها يوسف: ما لك؟ أتستحين من مراقبة جماد، ولا أستحي من مراقبة الملك الجبار؟!

وعن مالك بن دينار قال: جنات عدن من جنات الفردوس، وفيها حور خلقن من ورد الجنة، قيل له: ومن يسكنها؟ قال: يقول الله ﷻ: إنما يسكن جنات عدن الذين إذا هموا بالمعاصي ذكروا عظمتي فراقبوني، والذين انثنت أصلابهم من خشيتي، وعزتي وجلالي إني لأهمُّ بعذاب أهل الأرض، فإذا نظرت إلى أهل الجوع والعطش من مخافتي صرفت عنهم العذاب.

وقال ابن المبارك لرجل: راقب الله تعالى. فسأله عن تفسيره، فقال: كن أبدًا كأنك ترى الله ﷻ.

وقال ابن عطاء: أفضل الطاعات مراقبة الحق على دوام الأوقات. وقال رجل للجنيد: بم استعين على غض البصر؟ قال: بعلمك أن نظر الله إليك أسبق من نظرك إلى المنظور إليه.

وقال أحد العلماء: والله إني لأستحي أن ينظر الله في قلبي وفيه أحد سواه.

قال ذو النون: علامة المراقبة إيثار ما أنزل الله، وتعظيم ما عظم الله، وتصغير ما صغر الله.

وقال إبراهيم الخواص: المراقبة خلوص السر والعلن لله جلّ في علاه.

إذا ما خلوت الدهر يومًا فلا تقل خلـوت ولكـن قـل عـليّ رقيـب
ولا تحســبن الله يغفــل ســاعة ولا أن مــا تخفيــه عنــه يغيــب
ألم تــر أن اليــوم أسرع ذاهــب وأن غــدًا للنــاظرين قريــب

من علم أن الله يراه حيث كان، وأن الله مطلع على باطنه وظاهره، وسره وعلانيته، واستحضر ذلك في خلوته، أوجب له ذلك العلم واليقين ترك المعاصي والذنوب، وكان بعض السلف يقول لأصحابه: زهدنا الله وإياكم في الحرام زُهْدَ من قدَر عليه في الخلوة، فعلم أن الله يراه، فتركه من خشيته جلّ في علاه.

وقال الشافعي: أعز الأشياء ثلاثة: الجود من قلة، والورع في خلوة، وكلمة الحق عند من يرجى أو يخاف. وقالوا: أعظم العبادات مراقبة الله في سائر الأوقات.

ويحكى أنه كان هناك رجل صالح تقي.. وكان يعمل حارسًا لبستان أحد الأغنياء، وظل في عمله فترة حتى جاء يوم حضر فيه صاحب البستان ومعه بعض أصحابه، وطلب صاحب البستان منه أن يحضر لضيوفه بعض الثمر، فأحضر الرجل بعض الثمر وقدمه للرجل وضيوفه، وكانت المفاجأة أنها كلها كانت حامضة،

فقال صاحب البستان منزعجًا: ما هذا يا رجل؟ أردت إحراجي أمام ضيوفي فجلبت ثمرًا حامضًا!!

فقال له: وكيف لي أن أعرف أن الثمر حامض؟

فقال صاحب البستان: ألا تعرف الفرق بين الثمر الحامض والثمر الطيب؟

فقال: نعم لا أعرف يا سيدي.

فاستغرب صاحب البستان وقال: تعمل كل هذه المدة في البستان ولا تعرف الفرق! ألم تأكل يومًا من ثمره؟

فقال: لم آكل من ثمر البستان منذ عملت فيه، فلقد استعملتني للحراسة ولم تأذن لي بالأكل من ثمره.

فعجب صاحب البستان من رد هذا الحارس الأمين.

ولكن إجابات الحارس الأمين أثّرت في صاحب البستان، فعمد إلى جيران البستان يسألهم عنه، فأثنوا عليه خيرًا، وتكلموا في ورعه وتقواه.

وبعد عدة أيام جاء صاحب البستان إلى البستان وقال: إني مستنصحك في أمر، فقال الرجل: وما هو؟

فقال صاحب البستان: لي ابنة شابة حبيبة إلى قلبي قد تكاثر خطابها، فبرأيك من أزوّجها؟

فقال: يا سيدي، إن العجم يزوجون للجمال، وإن العرب يزوجون للنسب، وإن المسلمين يزوجون للدين، فاختر لها ما شئت.

فصمت الرجل برهة ثم قال: وأنا سأزوجها للدين، وأخطبك أنت لها!.

فتزوجا وبارك الله لهما، وأنجبا ولدًا نجيبًا سمياه: عبد الله، فكان عبد الله بن المبارك- وهو من مؤسسي علم الحديث.

***

٨ - الخوف والرجاء

إذا عرفت الله ﷻ الجبار الذي يجبر قلوب عباده المظلومين، وإذا عرفت الله ﷻ التواب، الذي يفرح بعودة التائبين، وإذا عرفت الرحمن الرحيم؛ لأحببت رب العالمين، وانشرح صدرك، وامتلأت نفسك أملاً ورجاء فيه جل شأنه، وإذا عرفت الله ﷻ القهار القوي المنتقم العزيز، امتلأ قلبك شفقة وخوفًا، وهكذا فإن الرجاء والخوف جناحان يطير بهما المقربون إلى كل مقام محمود، فأنت تعمل العمل تتقرب به إلى الله ﷻ، وأنت بين سبيلين: سبيل الخوف من ألا يقبل العمل، وسبيل الرجاء في أن يتقبله الله ﷻ، ويجزيك به خير الجزاء، ونحن بين الاثنين يجب أن تستقيم حياتنا، فنطمع في رحمة الله وعطائه ومغفرته، ونخشى عقابه وعذابه، وعدم قبوله لما نقدم؛ لما يعتري الأعمال من ضعف، أو رياء، أو ما شابه من تقصير وخلافه.

قال الله تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ آَمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ**﴾ [البقرة: ٢١٨] والمعنى: أولئك الذين يستحقون أن يرجوا، ولم يرد به تخصيص وجود الرجاء؛ لأن غيرهم أيضًا قد يرجون ذلك.

والرجاء محمود؛ لأنه باعث على العمل، واليأس مذموم؛ لأنه صارف عن العمل، إذ من عرف أن الأرض سبخة، وأن الماء مغور، وأن البذر لا ينبت، ترك تفقد الأرض، ولم يتعب في تعاهدها.

روي في الصحيحين من حديث أبي هريرة ﷺ، عن النبي ﷺ أنه قال: «**يَقُولُ اللهُ ﷻ: أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي**» [متفق عليه]، وفي رواية أخرى: «**فَلْيَظُنَّ بِي مَا شَاءَ**». وفي حديث آخر أن النبي ﷺ قال: «**لا يَمُوتَنَّ أَحَدُكُمْ إِلاَّ وَهُوَ يُحْسِنُ الظَّنَّ بِاللهِ عَزَّ وَجَلَّ**» [رواه مسلم].

وأوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام: أحبني، وأحب من يحبني، وحببني إلى خلقي. قال: يارب، كيف أحببك إلى خلقك؟ قال: اذكرني بالحسن الجميل، واذكر آلائي وإحساني.

وعن مجاهد- رحمه الله- قال: يؤمر بالعبد يوم القيامة إلى النار فيقول: ما كان هذا ظني، فيقول: ما كان ظنك؟ فيقول: أن تغفر لي، فيقول: خلُّوا سبيلَه.

ودواء الرجاء يحتاج إليه رجلان: إما رجل قد غلب عليه اليأس حتى ترك العبادة، وإما رجل غلب عليه الخوف حتى أضرَّ بنفسه وأهله.

وعن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**والَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَوْ لَمْ تُذْنِبُوا، لَذَهَبَ الله بِكُمْ، وَجَاءَ بِقَومٍ يُذْنِبُونَ فَيَسْتَغْفِرُونَ الله تَعَالَى، فَيَغْفِرُ لَهُمْ**» [رواه مسلم].

وعن عائشة- رضي الله عنها- أن النبي ﷺ قال: «**قَارِبُوا وَسَدِّدُوا**

وَاعْلَمُوا أَنَّهُ لَنْ يَنْجُوَ أَحَدٌ مِنْكُمْ بِعَمَلِهِ» قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، وَلاَ أَنْتَ. قَالَ: «وَلا أَنَا إِلاَّ أَنْ يَتَغَمَّدَنِيَ اللهُ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ» [رواه مسلم].

وفي الصحيحين من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ، عن النبي ﷺ قال: **«يَقُولُ اللهُ تَعَالَى: يَا آدَمُ، فَيَقُولُ: لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ وَالْخَيْرُ فِي يَدَيْكَ، فَيَقُولُ: أَخْرِجْ بَعْثَ النَّارِ، قَالَ: وَمَا بَعْثُ النَّارِ؟ قَالَ: مِنْ كُلِّ أَلْفٍ تِسْعَ مِائَةٍ وَتِسْعَةً وَتِسْعِينَ. فَعِنْدَهُ يَشِيبُ الصَّغِيرُ ﴿وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللهِ شَدِيدٌ﴾». قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، وَأَيُّنَا ذَلِكَ الْوَاحِدُ؟ قَالَ: «أَبْشِرُوا؛ فَإِنَّ مِنْكُمْ رَجُلاً، وَمِنْ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ أَلْفًا، ثُمَّ قَالَ: وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، إِنِّي أَرْجُو أَنْ تَكُونُوا رُبُعَ أَهْلِ الْجَنَّةِ» فَكَبَّرْنَا فَقَالَ: «أَرْجُو أَنْ تَكُونُوا ثُلُثَ أَهْلِ الْجَنَّةِ» فَكَبَّرْنَا فَقَالَ: «أَرْجُو أَنْ تَكُونُوا نِصْفَ أَهْلِ الْجَنَّةِ» فَكَبَّرْنَا فَقَالَ: «مَا أَنْتُمْ فِي النَّاسِ إِلاَّ كَالشَّعَرَةِ السَّوْدَاءِ فِي جِلْدِ ثَوْرٍ أَبْيَضَ، أَوْ كَشَعَرَةٍ بَيْضَاءَ فِي جِلْدِ ثَوْرٍ أَسْوَدَ»**.

وقال ابن مسعود ﷺ: يغفر الله ﷻ يوم القيامة مغفرة لم تخطر على قلب بشر.

وروي أن مجوسيًّا استضاف إبراهيم الخليل عليه السلام، فلم يضفه وقال: إن أسلمت أضفتك. فأوحى الله تعالى إليه: يا إبراهيم، منذ تسعين سنة أطعمه على كفره. فسعى إبراهيم عليه السلام خلفه، فردَّه وأخبره في الحال، فتعجب من لطف الله تعالى، فأسلم.

والخوف عبارة عن تألم القلب واحتراقه بسبب توقع مكروه في

الاستقبال، وأخوف الناس أعرفهم بنفسه وبربه، ولذلك قال النبي ﷺ: «**إِنِّي لأَعْلَمُكُمْ بِاللهِ وَأَشَدُّكُمْ لَهُ خَشْيَةً**» [متفق عليه].

وقال تعالى: ﴿**إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ**﴾ [فاطر: ٢٨].

وفضيلة كل شيء بقدر إعانته على طلب السعادة، وهي لقاء الله تعالى، والقرب منه، فكل ما أعان على ذلك فهو فضيلة، فإذا كان الخوف معينًا على الطاعة، فهو فضيلة، قال الله تعالى: ﴿**وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ**﴾ [الرحمن: ٤٦]، وقال تعالى: ﴿**رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ**﴾ [البينة: ٨].

وقال النبي ﷺ: «**إذا اقْشَعرَّ جِلدُ العَبدِ مِن مَخافةِ اللهِ ﷻ تَحاتتْ عنْه ذُنُوبُه كَمَا يَتَحاتُّ عنْ الشجَرةِ اليَابِسةِ وَرَقُهَا**» [رواه البيهقي في شعب الإيمان].

وقال: قال الله ﷻ: «**وعِزَّتي وجَلاَلي لا أَجْمعُ على عَبدِي خَوفَينِ، ولا أَجْمعُ لَهُ أَمْنَينِ، إنْ أَمَّنَني في الدنيا أَخَفْتُه يومَ القِيامةِ، وإنْ خافَني في الدنيا أَمَّنتُه يومَ القِيامةِ**» [رواه ابن المبارك في الزهد والرقائق].

وعن ابن عباس ﷺ، عن النبي ﷺ أنه قال: «**عَيْنَانِ لاَ تَمَسُّهُمَا النَّارُ: عَيْنٌ بَكَتْ مِنْ خَشْيَةِ اللهِ، وَعَيْنٌ بَاتَتْ تَحْرُسُ فِي سَبيلِ اللهِ**» [رواه الترمذي]. ذلك أن المؤمن كما قلنا هو بين جناحي الخوف والرجاء، ومع ذلك نجد أن أكثر الناس خشية لله هم المقربون إليه سبحانه، ونذكر منهم مثالاً واحدًا على ذلك، وهو جبريل عليه السلام، وكيف كانت خشيته، وإذا كان جبريل عليه السلام كذلك، فالأولى بنا ونحن أهل الضعف والمعاصي أن تذوب

قلوبنا خشية من الله ﷻ؛ فعن جابر ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَرَرْتُ ليلةَ أُسْرِي بي بالمَلإِ الأعلَى وجِبريلُ كالحِلْسِ البَالِي مِن خَشيةِ الله ﷻ**» [رواه الطبراني في الأوسط].

وروي أن جبريل عليه السلام جاء إلى النبي ﷺ وهو يبكي، فقال له ﷺ:«**ما يُبكِيكَ؟**»، قال: ما جَفَّتْ لى عينٌ مُنذُ خلَق الله جَهنَّمَ؛ مَخافةَ أنْ أَعْصِيَه فيُلْقِيني فِيها. [رواه البيهقي في شعب الإيمان].

***

٩- التواضـــع

والتواضع معناه أن تخفض جناحك للناس، ولا تتعالى عليهم بجاهٍ أو مال أو منصب، وتشعر أنك واحد منهم، وبأنك لست خيرًا من أحد مهما بلغ سلطانك، فما يشغلك ليس مكانك بين الناس، وإنما مكانك عند الله، وحالك عنده، وكلما تكبرت صغرت مكانتك عنده سبحانه، حتى تصبح على خطر، وكلما صغرت نفسك أمام عينك، كلما ازددت قربًا وعلوًا عند الله ﷻ.

والتواضع عكس الكبر، وقد حذر النبي ﷺ من شرّه وسوء عاقبته- وقد مر بنا من قبل- فقال ﷺ: «**يُحْشَرُ المُتَكَبِّرُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَمْثَالَ الذَّرِّ فِي صُوَرِ الرِّجَالِ يَغْشَاهُمْ الذُّلُّ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ، فَيُسَاقُونَ إِلَى سِجْنٍ فِي جَهَنَّمَ يُسَمَّى بُولَسَ تَعْلُوهُمْ نَارُ الأَنْيَارِ، يُسْقَوْنَ مِنْ عُصَارَةِ أَهْلِ النَّارِ طِينَةَ الْخَبَالِ**» [رواه الترمذي]، ويقول ﷺ: «**حَقٌّ عَلَى اللهِ أَنْ لا يَرْتَفِعَ شَيْءٌ مِنْ الدُّنْيَا إِلاَّ**

وَضَعَهُ» [رواه البخاري].

قال رسول الله ﷺ في التواضع: «**مَا زَادَ اللهُ عَبْدًا بِعَفْوٍ إِلاَّ عِزًّا، وَمَا تَوَاضَعَ أَحَدٌ للهِ إِلاَّ رَفَعَهُ اللهُ**» [رواه مسلم].

وقال ﷺ: «**طُوبَى لِمَنْ تَوَاضَعَ مِنْ غَيْرِ مَنْقَصَةٍ، وذَلَّ فِي نَفْسِهِ مِنْ غَيْرِ مَسْكَنَةٍ، وَأَنْفَقَ مَالاً جَمَعَهُ فِي غَيْرِ مَعْصِيَةٍ، وَرَحِمَ أَهْلَ الذِّلِّ وَالْمَسْكَنَةِ، وَخَالَطَ أَهْلَ الْفِقهِ وَالْحِكْمَةِ**» [رواه الطبراني في الكبير].

خير الله- سبحانه- نبيه ﷺ بين أن يكون عبدًا رسولاً، أو ملكًا رسولاً، فاختار النبي ﷺ أن يكون عبدًا رسولاً؛ تواضعًا لله ﷻ.

والتواضع من أبرز أخلاق الرسول ﷺ، والنماذج التي تدل على تواضعه ﷺ كثيرة، منها:

أن السيدة عَائِشَةَ - رضي الله عنها- سُئِلَتْ: مَا كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَصْنَعُ فِي بَيْتِهِ، قَالَتْ: «كَانَ يَكُونُ فِي مِهْنَةِ أَهْلِهِ- تَعْنِي خِدْمَةَ أَهْلِهِ- فَإِذَا حَضَرَتْ الصَّلاةُ خَرَجَ إِلَى الصَّلاةِ» [رواه البخاري].

وكان يحلب الشاة، ويخيط النعل، ويُرَقِّع الثوب، ويأكل مع خادمه، ويشتري الشيء من السوق بنفسه، ويحمله بيديه، ويبدأ من يقابله بالسلام ويصافحه، ولا يفرق في ذلك بين صغير وكبير، أو أسود وأحمر، أو حر وعبد، وكان ﷺ لا يتميز على أصحابه، بل يشاركهم العمل ما قل منه وما كثر.

وعندما فتح النبي ﷺ مكة دخلها خافضًا رأسه تواضعًا لله رب

العالمين، حتى إن رأسه كادت أن تمس ظهر ناقته، ثم عفا عن أهل مكة وسامحهم وقال لهم: «**اذْهَبُوا فأَنْتمُ الطُّلَقاءُ**» [رواه البيهقي في معرفة السنن والآثار].

وأوحى الله تعالى إلى موسى عليه السلام: إنما أتقبل الصلاة ممن تواضع بها لعظمتي، ولم يستطل بها على خلقي، وألزم قلبه خوفي، وقطع نهاره بذكري، وكف نفسه عن الشهوات من أجلي.

ودخل ابن السماك يومًا على هارون الرشيد فقال: يا أمير المؤمنين، إن تواضعك في شرفك أحب إلينا من شرفك، فقال: ما أحسن ما قلت! فقال: يا أمير المؤمنين، إن امرَأً آتاه الله جمالاً في خلقته، وموضعًا في حسبه، وبسط له في ذات يده، فعفَّ في جماله، وواسى في ماله، وتواضع في حسبه، كتب في ديوان الله من خالص أولياء الله. فدعا هارون بدواة وقرطاس وكتبه بيده.

ويحكى أن رجلاً من بلاد الفرس جاء برسالة من كسرى ملك الفرس إلى الخليفة عمر ﷺ، وحينما دخل المدينة سأل عن قصر الخليفة، فأخبروه بأنه ليس له قصر، فتعجب الرجل من ذلك، وخرج معه أحد المسلمين ليرشده إلى مكانه، وبينما هما يبحثان عنه في ضواحي المدينة، وجدا رجلاً نائمًا تحت شجرة، فقال المسلم لرسول كسرى: هذا هو أمير المؤمنين عمر بن الخطاب.

فازداد تعجب الرجل من خليفة المسلمين الذي خضعت له ملوك الفرس والروم، ثم قال سفير كسرى: حكمتَ فعدلتَ فأمنتَ فنمتَ يا عمر.

وذات يوم، جلست قريش تتفاخر في حضور سلمان الفارسي، وكان أميرًا على المدائن، فأخذ كل رجل منهم يذكر ما عنده من أموال، أو حسب،

أو نسب، أو جاه، فقال لهم سلمان: أما أنا فأوَّلي نطفة قذرة، ثم أصير جيفة منتنة، ثم آتي الميزان، فإن ثَقُل فأنا كريم، وإن خَفَّ فأنا لئيم.

وكان سليمان بن داود عليهما السلام إذا أصبح تصفح وجوه الأغنياء والأشراف، حتى يجيء إلى المساكين فيقعد معهم ويقول: مسكين مع مساكين.

وقال مالك بن دينار: لو أن مناديًا ينادي بباب المسجد ليخرج شرّكم رجلاً، والله ما كان أحد يسبقني إلى الباب إلا رجلاً بفضل قوة أو سعي، قيل: فلما بلغ ابن المبارك ذلك قال: بهذا صار مالك مالكًا.

ولا تمش فوق الأرض إلا تواضعًا ... فكم تحتها قوم هم منك أرفع
فإن كنت في عزٍّ وحرز ومنعة ... فكم مات قوم هم منك أمنع!

***

١٠ – الإخلاص

قال الله تعالى: ﴿**وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللهَّ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ**﴾ [البينة: ٥]، وقال: «**أَلا للهَّ الدِّينُ الخَالِصُ**﴾ [الزمر: ٣]. وعن مصعب بن سعد، عن أبيه ﷺ قال: ظن أَبي أن له فضلاً على من هو دونه من أصحاب رسول الله ﷺ، فقال له ﷺ: «**إِنَّما يَنْصُرُ اللهُ ﷻ هذهِ الأُمَّةَ بضَعِيفها؛ بدَعَوتِهم وصَلاَتِهم وإخْلاصِهم**» [رواه النسائي].

وعندما توعد إبليس اللعين عباد الله بأن يفتنهم عن طريق الله، وأن يكونوا رفقاءه في النار، قال لله تعالى: ﴿**إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ**﴾ [الحجر: ٤٠]، فالعبد لا يتخلص من الشيطان، ولا يقدر عليه إلا بالإخلاص،

ولذلك كان معروف الكرخي- رحمه الله- يضرب نفسه ويقول: يا نفس أَخْلِصي تتخلصي.

والإخلاص معناه أن تبتغي في عبادتك وجه الله تعالى وحده، خالصة له دون غيره، ولا تبتغي من ورائها مالاً، أو جاهًا، أو سمعة عند الناس، والله ﷻ أغني الأغنياء عن الشرك. أي الشرك في أن تنوي بعملك وجه الله والناس مثلاً.

وقد قيل: كل الناس هلكى إلا العالمون، وكل العالمون هلكى إلا العاملون، وكل العاملون هلكى إلا المخلصون، والمخلصون على خطر عظيم.

وذلك لأن أمر العبادة يتطلب أن تستحضر نية الإخلاص في العمل من بدايته، ثم في أثنائه، ثم بعد نهايته، وذلك من الأمور الشاقة على النفس، لذلك فالإخلاص نهايته الجنة إن شاء الله، وفيه النجاة، ولكن الأمر ليس هينًا، ويجب على المسلم أن يتعهد نفسه في كل أعماله، ويسأل نفسه مَن أُريد بعملي؟ وذلك إذا أراد أن يُقبل عمله.

وبالنية المخلصة يمكن أن تكون من أصحاب الأعمال المقبولة حتى لو لم تستطع فعلها، ومن أمثلة ذلك: أن قومًا ذهبوا إلى رسول الله ﷺ فقالوا: يا رسول الله، نريد أن نخرج معك في غزوة تبوك، وليس معنا متاع ولا سلاح. ولم يكن مع النبي ﷺ شيء يعينهم به، فأمرهم بالرجوع؛ فرجعوا محزونين يبكون لعدم استطاعتهم الجهاد في سبيل الله، فأنزل الله ﷻ في حقهم قرآنًا يتلى إلى يوم القيامة: ﴿**لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلا عَلَى الْمَرْضَى وَلا عَلَى الَّذِينَ لا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى**

الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ۞ وَلا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ﴾ [التوبة: ٩١-٩٢].

فلما كان عائدًا ﷺ من الغزو قال لأصحابه: «**إِنَّ أَقْوَامًا بِالْمَدِينَةِ خَلْفَنَا مَا سَلَكْنَا شِعْبًا، وَلا وَادِيًا إِلا وَهُمْ مَعَنَا فِيهِ حَبَسَهُمُ الْعُذْرُ**» [رواه البخاري].

وكذلك يمكن أن يضيع أجرك، وتضيع قوتك إذا تغيرت النية في عملك، ولا تلوم ساعتها إلا نفسك.

يحكى أنه كان في بني إسرائيل رجل عابد، فجاءه قومه وقالوا له: إن هناك قومًا يعبدون شجرة، ويشركون بالله، فغضب العابد غضبًا شديدًا، وأخذ فأسًا ليقطع الشجرة، وفي الطريق قابله إبليس في صورة شيخ كبير، وقال له: إلى أين أنت ذاهب؟

فقال العابد: أريد أن أذهب لأقطع الشجرة التي يعبدها الناس من دون الله. فقال إبليس: لن أتركك تقطعها.

وتشاجر إبليس مع العابد، فغلبه العابد وأوقعه على الأرض، فقال إبليس: إني أعرض عليك أمرًا هو خير لك، فأنت فقير لا مال لك، فارجع عن قطع الشجرة، وسوف أعطيك عن كل يوم دينارين، فوافق العابد.

وفي اليوم الأول، أخذ العابد دينارين.

وفي اليوم الثاني أخذ دينارين.

ولكن في اليوم الثالث لم يجد الدينارين؛ فغضب العابد وأخذ فأسه

وقال: لابد أن أقطع الشجرة. فقابله إبليس في صورة الشيخ الكبير وقال له: إلى أين أنت ذاهب؟ فقال العابد: سوف أقطع الشجرة.

فقال إبليس: لن تستطيع، وسأمنعك من ذلك، فتقاتلا، فغلب إبليس العابدَ، وألقى به على الأرض، فقال العابد: كيف غلبتَني هذه المرة وقد غلبتُك في المرة السابقة؟! فقال إبليس: لأنك غضبتَ في المرة الأولى لله تعالى، وكان عملك خالصًا له؛ فأمَّنك الله مني، أمَّا في هذه المرة فقد غضبت لنفسك لضياع الدينارين، فهزمتُك وغلبتُك.

والله ﷻ لا يقبل العمل إلا إذا كان خالصًا له، فأما من كان مرائيًا، فالمرائي ينادى عليه يوم القيامة بأربعة أسماء: يا مرائي، يا مخادع، يا مشرك، يا كافر.

والرياء أن تعمل العمل ويكون للنفس حظ فيه، كأن تتصدق ليقال: منفق، أو تجلس بالمسجد لتهدِّئ نفسك، وتصوم كي يصح جسدك، وتلك كلها أعمال في جملتها طاعات، إلا أنه في الحديث: يقول الله ﷻ: «**أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنْ الشِّرْكِ**» [رواه مسلم]، فإذا دخل حظ النفس في العمل أفسده وكدره، ولذلك قيل: من سلم له من عمره لحظة واحدة خالصة لوجه الله نجا، وذلك لعزة الإخلاص، وعسر تنقية القلب من تلك الشوائب.

فالإخلاص الإخلاص، وتجديد النية في كل عمل، وفي أثناء العمل كي لا نكون من أصحاب تلك الآية الكريمة: ﴿**قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً ۞ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا**﴾ [الكهف: ١٠٣، ١٠٤].

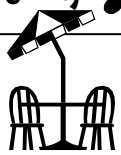

استراحة

يا أهلنا فكوا الحصار

- عار عليكم أي عار.
- عار عليكم أن يجوع صغارنا.
- أنتم.. أليس لكم صغار؟.
- أين المروءة والأخوة والذمار؟.
- إن لم تغاروا للأخوة بيننا.
- فارعوا لنا حق الجوار.
- يا أهلنا.. يا أهلنا عظم البلاء.
- عار عليكم أن يمزقنا الشتات والالتجاء.
- أن يقتل الجوع النساء.
- عار عليكم ويحكم.
- أن تسفكوا بوجوهنا ماء الحياء.
- أن تحرموا أجسادنا خيط الكساء.
- أن تحرموا أطفالنا كأس الحليب أو الدواء.

يا أمة الأبراج والذهب المقنطر في الهواء.

تتفرجون على فتات لحومنا وعلى الدماء.

وها قد أقبل الثلث الأخير من رمضان

إن هي إلا أيام قليلة وينقضي كل شيء، فإما أن نفوز برضا الله وجنته، وإما أن نخسر الخسران المبين، وإن لم نفز في رمضان فمتى يكون الفوز؟ وإن لم يغفر لنا في تلك الأيام المباركة، فمتى تكون المغفرة؟ وإن لم نشمر ونجتهد في رمضان، فمتى يكون الاجتهاد؟

إن هي إلا أيام قليلة وبعضنا قد غفر له ذنبه، وأعتق من النار، والبعض ما زال يقف بالباب، فلا ملل، وإنما جد واجتهاد، وتشمير وهمة عالية، ولن نبرح باب الله حتى يغفر لنا برحمته، وسنكون حيث يريدنا أن نكون واقفين بين يديه، ضارعين خاشعين باكية قلوبنا قبل أعيننا، لاهثة ألسنتنا بالدعاء والذكر والاستغفار والصلاة على النبي ﷺ، ومتورمة أقدامنا في قيام الليل ووقت السحر.

قال تعالى: ﴿**إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ۞ آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ ۞ كَانُوا قَلِيلًا مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ۞ وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ**﴾ [الذاريات: ١٥- ١٨]. إنها أيام قليلة وينتهي شهر البركة، شهر الخير، شهر المغفرة، شهر أوله رحمة، وأوسطه مغفرة، وآخره عتق من النار، كما قال المصطفى صلوات الله وسلامه عليه.

هذه هي الأيام الأخيرة من رمضان، حيث العشر الأواخر وما تتضمنه

من ليلة القدر، تلك الليلة العظيمة التي فضّلها الله سبحانه وتعالى عن ألف شهر.

وقد أمر الله سبحانه وتعالى نبيه ﷺ، وهو القدوة الحسنة، بقيام الليل فيه، فقال في محكم آياته: ﴿**وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا**﴾ [الإسراء: ٧٩].

ومع أن هذا الأمر كان خاصًّا بالمصطفى عليه الصلاة والسلام، إلا أن عامة المسلمين يدخلونه ضمن النداء، بحكم أنهم مطالبون بالاقتداء برسولهم الكريم ﷺ.

وكان من هديه ﷺ إذا دخل العشر الأواخر من رمضان شمَّر للعبادة، واستعد لها استعدادًا لم يكن مثله في غيرها، فقد روى البخاري في صحيحه عن عائشة- رضي الله عنها- قالت: **كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا دَخَلَ الْعَشْرُ شَدَّ مِئْزَرَهُ، وَأَحْيَا لَيْلَهُ، وَأَيْقَظَ أَهْلَهُ**.[متفق عليه]، وشد المئزر يقتضي الاجتهاد في العبادة.

وروي أن رسول الله ﷺ كان يُحيي الليل بالصلاة والدعاء وغيرهما من الطاعات، وكان يشرك أهله في هذا الخير، فيوقظهم لقيام الليل معه.

***

١ - الاعتكاف

الكثير من الناس يكد ويكدح طوال العام، ويحلم بالإجازة الصيفية التي يستريح فيها من عناء ومشقة طول العام، ثم هو يدخر من دخله، ويقتطع من معيشته كي يوفر ما سينفقه في تلك الإجازة، ثم هو يقضي الوقت ليفكر، ويجمع العائلة كي يتفقوا على المكان الذي سيقضون فيه تلك الإجازة الترفيهية، والتي يكون أقلها أسبوعًا، وإذا تيسر الحال امتد لشهر أو أكثر، حسب الحالة المادية، ويتمنى الجميع لو تمتد تلك الأيام، ولكن الظروف المادية تكون غلابة في هذا الأمر.

ذلك بالنسبة للأيام الترفيهية، أما والله إننا نحتاج إلى استراحة إيمانية تعبدية نأخذ منها زادًا يكفينا لقضاء عام بأكمله، زادًا إيمانيًّا نتزود به، ونستمد منه القوة على مقاومة الشيطان، ورغبات النفس، وليس أفضل من رمضان، وليس أفضل من بيوت الله، وليس أكرم منه، خاصة إذا كنا في بيته- المسجد- في ذكر وصلاة وصيام، وانقطاع عن الدنيا لمدة عشرة أيام، ورفع اليد بالدعاء في وقت السحر، وفي ليال فيها ليلة خير من ألف شهر- ليلة القدر - ومع إله كريم يستحي أن يرد يد عبده فارغة وقد رفعها بالدعاء، ألا يستحق كل هذا أن نتفرغ ولو عشرة أيام في أفضل شهر لعبادة الله ﷻ، خاصة بعد أن اتفقنا أنه ربما يكون «الرمضان الأخير».

روى مالك قول الرسول ﷺ: «**سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمْ اللهُ فِي ظِلِّهِ يَوْمَ لا ظِلَّ إِلا ظِلُّهُ ... وَرَجُلٌ كَانَ قَلْبُهُ مُعَلَّقًا بِالْمَسْجِدِ إِذَا خَرَجَ مِنْهُ حَتَّى يَعُودَ إِلَيْهِ**» [رواه

الترمذي]. فإذا كان هذا جزاء تعلق القلب بالمسجد، فما أعظم جزاء الاعتكاف والبقاء فيه انتظارًا للصلوات!

والاعتكاف هو لزوم المسجد والإقامة فيه بنية التقرب إلى الله تعالى، وأقله لحظة، ويستحب ألا يقل عن يوم وليلة.

وهو سنة في جميع الأوقات، فقد رُوي أنه ﷺ قد اعتكف العشرَ الأُوَلَ من شوال، وهو سنة مؤكدة في رمضان، وفي العشر الأواخر آكد، اقتداء بالرسول ﷺ، وطلبًا لليلة القدر، يدل على ذلك فعله ﷺ، ومداومته عليه تقربًا إلى الله، وطلبًا لثوابه؛ فقد كان يعتكف في رمضان عشرة أيام، فلما كان العام الذي قبض فيه اعتكف عشرين يومًا؛ ولقوله: «**مَنْ كَانَ اعْتَكَفَ مَعِي فَلْيَعْتَكِفْ العَشْرَ الأَوَاخِرَ**» [رواه البخاري]، أي من شهر رمضان، ويدل على ذلك أيضًا اعتكاف أزواجه معه وبعده.

ويصبح **الاعتكاف** واجبًا إذا نذره المسلم على نفسه؛ لقوله ﷺ: «**مَنْ نَذَرَ أَنْ يُطِيعَ اللهَّ فَلْيُطِعْهُ**» [رواه البخاري].

وعن عمر ﷺ أنه قال: يا رسول الله، إني نذرت أن أعتكف ليلة في المسجد الحرام. فقال النبي ﷺ: «**أَوْفِ بِنَذْرِكَ**» [رواه النسائي].

ويصح **الاعتكاف** من الرجل والمرأة والصبي المميز. ويشترط للمتزوجة أن يأذن لها زوجها، وأن تستتر في مكان لا يصلي فيه الرجال؛ لفعل عائشة وحفصة وزينب في عهده ﷺ؛ قال الإمام أحمد: يعتكفن في المساجد، ويضرب لهن فيه بالخيم.

والحكمة من **الاعتكاف** أن فيه تسليم النفس بالكلية إلى عبادة الله؛ طلبًا للزلفي، وإبعاد النفس من شغل الدنيا التي هي مانعة عملٍ يطلبه العبد من القربى، وفي استغراق المعتكف وقته في الصلاة؛ لأن المقصد الأصلي من مشروعية **الاعتكاف** هو انتظار الصلاة في الجماعات، وفيه يشبه المعتكف نفسه بالملائكة الذين لا يعصون الله ما أمرهم، ويفعلون ما يؤمرون، ويسبحون الليل ولا يفتُرون.

وللمعتكف قطع اعتكافه المستحب متى شاء. ويبطل بالخروج من المسجد لغير حاجة؛ فقد روت عائشة- رضي الله عنها- أن النبي ﷺ لم يكن يدخل البيت إلا لحاجة إذا كان معتكفًا، ويجوز للضرورة، لكن إذا طال خروجه بطل **الاعتكاف**؛ لأن **الاعتكاف** عبادة، فلا بد من تجديد النية إن عاد إلى المسجد.

ويستحب للمعتكف أن يكثر من نوافل العبادات، فيشغل نفسه بالصلاة وتلاوة القرآن والاستغفار والذكر والدعاء، والصلاة على رسول الله ﷺ، ويستحب أيضًا اجتناب ما لا يعنيه من جدال ومراء وكثرة كلام وغيره؛ لقوله ﷺ: «**مِنْ حُسْنِ إِسْلامِ الْمَرْءِ تَرْكُهُ مَا لا يَعْنِيهِ**» [رواه الترمذي].

ويكره له فضول القول والعمل، فينبغي له ألا يتكلم إلا بخير؛ ويكره له أيضًا الانشغال بغير العبادة؛ فإن رسول الله ﷺ كان يعتكف ولم ينقل عنه الاشتغال بغير العبادة.

ولا يصح اعتكاف الرجل إلا في المسجد؛ لقوله تعالى: ﴿**وَأَنْتُمْ**

﴿عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ﴾ [البقرة: ١٨٧]، وللاتباع؛ فإن رسول الله ﷺ لم يعتكف إلا في المسجد.

ويجوز للمرأة أن تعتكف في بيتها.

***

٢- في رحاب الصلاة

إن الصلاة التي نتحدث عنها اليوم ليست تلك الحركات التي يؤديها الناس كل يوم من الصبح حتى العشاء، وتكون الحصيلة فيها لا شيء، فنجد التاجر الذي يخرج من المسجد بعد الصلاة ليعود إلي عمله في غش الناس، ونجد الطالب الذي يخرج من المسجد بعد الصلاة ليهرب من المذاكرة، ويتطاول على أستاذه، وربما على أبيه وأمه، ونجد الأستاذ الذي يخرج من المسجد بعد صلاته ليحث الخطى إلى الدروس الخصوصية؛ لأنه لم يعطِ ما عليه في المدرسة، والعامل والفلاح والمسئول وغيرهم.. ليست تلك الصلاة التي نود أن نتحدث عنها في سياق كلامنا هنا، إننا نتحدث عن الصلاة الأخيرة في الرمضان الأخير.. صلاة خاشعة خاضعة بين يدي الله ﷻ، صلاة تصليها وأنت واقف على الصراط، من تحتك النار، وأمامك الجنة تشم ريحها وتراها، وترى أقوامًا يعبرون بجوارك منهم من يعبر كالريح، ومنهم كطرفة العين، ومنهم كالسلحفاة،

ومنهم من يقع ...الصلاة الأخيرة ورسول الله ﷺ هناك في نهاية الصراط ينظر إليك ويقول: يا رب، سلم سلم، رسول الله ﷺ ينظر إليك، تمعن في نظرته ﷺ، أهي نظرة عتاب؟ أهي نظرة تشجيع؟ أهي نظرة سعادة بك؟ تمعن واسأل نفسك في أي وضع تحب أن تكون؟ كيف تحب أن يستقبلك رسول الله ﷺ؟ فقد آن أوان الرحيل، وها أنت تؤدي الصلاة الأخيرة في رمضان الأخير.

يقول الله ﷻ: ﴿**وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي**﴾ [طه: ١٤]. وظاهر الأمر الوجوب، والغفلة تضاد الذكر، فمن غفل في جميع صلاته، فكيف يكون مقيمًا الصلاة لذكره؟ وقوله تعالى: ﴿**وَلا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ**﴾ [الأعراف: ٢٠٥] نهي ظاهره التحريم، وقوله: ﴿**حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ**﴾ [النساء: ٤٣] تعليل لنهي السكران الذي هو غارق في الغفلة عن الصلاة.

وقال ﷺ: «**كَمْ مِن قائمٍ حظُّه مِن صَلاَتِه التَّعَبُ والنَّصَبُ!**» [رواه النسائي].

وقد نقل عن بشر بن الحارث فيما رواه عنه أبو طالب المكي، عن سفيان الثوري، أنه قال: من لم يخشع فسدت صلاته.

وروي عن الحسن أنه قال: كل صلاة لا يحضر فيها القلب فهي إلى العقوبة أسرع.

وعن معاذ بن جبل: من عرف من على يمينه وشماله متعمدًا وهو في الصلاة فلا صلاة له.

فهيا نفتتح الصلاة الأخيرة في العشر الأواخر والشهر الأخير.. كبِّر «الله أكبر»، وارفع يديك، واطرح الدنيا كلها خلف ظهرك، واستحضر بقلبك الكلمات والمعاني.. اطرح الدنيا وكبِّر، فالله أكبر منها، من همومك، أولادك، عملك، أهلك، الأموال، الفقر، كل شي الله أكبر منه، وما أنت مقبل عليه من لحظات وأنت واقف بين يدي المولى أهم بكثير من كل شيء، ولا تخشَ؛ فكل شيء ستعود إليه بعد الصلاة لتجده على حاله، ولكن ستجد شيئًا آخر قد تغير، إنسانًا آخر قد ولد من تلك الصلاة، همة عالية، ونفس أبية، وروح طاهرة، وعقل متوقد، ورضا وسعادة وطمأنينة، ورسالة من الصلاة في انتظارك: حفظك الله كما حفظتني، وعتاب من نفسك هامس: لمَ حرمتني من كل تلك السعادة فيما مضى، وقد كنا نستطيع أن نفعلها.. أن نقف بين يدي المولى ونستمتع بلقائه؟

تكبير وتسمية وحمد «الحمد لله رب العالمين».. إن كنت مريضًا فأنت تقولها، إن كنت مبتلًى فأنت تقولها، وإن كنت غنيًّا فأنت تقولها، على كل حال نقول: «الحمد لله»، وكلنا عنده ما يحمد الله عليه.. ابحث في نفسك ستجد أن وقوفك، مجرد أن سمح لك بالوقوف بين يديه يستحق الحمد، نعم إنها نعمة، وأي نعمة! حرم منها الكثيرون.

ألا ترى أن هناك ملايين الملايين من غير المسلمين أنت لست بينهم؟ ألا ترى أن هناك الملايين من المسلمين الغافلين أنت لست بينهم؟ أتدري أنك الآن بين يدي ملك الملوك تعبده بما أمرك، وتقف بين يديه مستسلمًا كما أرادك، ناداك فلبيت، وسمح لك أن تقف في رحابه، وأن تردد كلماته، وأن

تسأله ما شئت.

اسأله فإنه لا يمل من سؤالك، أرأيت ملكًا مهما بلغت عظمته وكرمه بهذه العظمة، وهذا الكرم؟ اسأل فإنه سيجيب، فلا تحمل هم الإجابة، ولكن اسأل بصدق، أسأله بحضور قلب وعقل، اسأله رضاه والجنة، اسأله أن يصرف عنك البلاء، أسأله أن ييسر لك أمرك؛ فهو الغني، فقط يريدك أن تسأله مجده، وأثني عليه وقل: ﴿**الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِين ۞ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ۞ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ**﴾.. حمدته وأثنيت عليه وملكته؛ إذن فتوجه إليه وحده بالعبادة بمنتهى الاستسلام: ﴿**إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ**﴾.. نستعين بك يا ربنا على عبادتك، ونستعين بك على أنفسنا، ونستعين بك على الشيطان، ونستعين بك على حوائج الحياة، نستعين بك وحدك، فلا أحد يقدر غيرك، وليس لنا سواك، نستعين بك أن تهدنا، ﴿**اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ**﴾ الصراط الذي ترتضيه لنا وارتضيناه لأنك ارتضيته لنا، ﴿**صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ**﴾ من النبيين، ومن الصحابة الأولين، ومن أنعمت عليهم بدينك، فاهدنا صراطهم، وساعدنا على أن نسير على خطواتهم، ﴿**غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ**﴾ من اليهود، ﴿**وَلاَ الضَّالِّينَ**﴾ الذين بدلوا من النصارى.

ثم كبر: «الله أكبر».. هل يمكن أن نحيا تلك اللحظات الغالية بهذا المعنى؟ وهل يمكن أن تأخذنا الدنيا الفانية من بين يدي الله؟ إن كانت قد استطاعت أن تأخذك لحظات فعد وكبر: «الله أكبر»، ثم اركع وقل: «سبحان ربي العظيم» ثلاثًا.. ذكِّر نفسك بها، بعظمة الله سبحانه.

وها نحن الآن نحني رءوسنا وظهورنا إعظامًا لشأنه، ثم نعتدل ونقول: «سمع الله لمن حمده»، ونحمد حمدًا يليق بمقامه- ألم نتفق أنه وحده المستحق للحمد- حمدًا كثيرًا طيبًا مباركًا فيه، حمدًا يُرضيه، وحمدًا يليق به، حمدًا كما بين السماوات والأرض، وبعدد الخلق.

هل اعترانا فتور؟ هل أخذتنا الدنيا؟ كبر وقل: «الله أكبر»، ثم اسجد واقترب.. أتدري أنك أقرب ما تكون من ربك وأنت ساجد؟ مرغ جبهتك بين يديه وقل: «سبحان ربي الأعلى».. فمهما علا شأنك، ومهما بلغت منزلتك جبهتك الآن في التراب وأنت ذليل ضعيف مستسلم مستكين.. كل ذلك لمن؟

لله وحده، لله الأعلى، فسبحانك يا من أنت الأعلى، سبحانك يا ربي.. ابكِ، ادعُ، اسأل فأنت قريب، قريب منه، ولن يخذلك، ولن يضيعك، ادع لنفسك ولأولادك ولأمتك الجريحة- أمة الإسلام- التي أمست بلا إسلام، ادع بما شئت وأنت قريب.. ولكن إياك وأنت قريب أن تبتعد وتأخذك الدنيا في لحظةٍ الله مقبل عليك فيها، والخسارة الكبيرة ألا يجدك حيث يريدك، وإن حدث فكبر: «الله أكبر»، وادع بين السجدتين، واطلب منه المغفرة على أي تقصير يكون قد بدر منك، واطلب منه أن يسامحك ويرحمك ويرزقك: اللهم اغفر لي، وارحمني، واهدني، وعافني، وارزقني.

ثم كبر: الله أكبر، ثم عُدْ للسجود بين يديه، عُدْ بشوق المحب للقاء حبيبه، عد واقترب فلا أقرب من الله من السجود، وحين تفهم، وحين

تتعايش مع تلك اللحظات الغالية، فأحسب أنك ستتعجل صلاتك كلها حتى تصل إلى لحظة السجود، تلك اللحظة التي وكأنك تنفرد بها مع رب العالمين تبثه شكواك ونجواك، فلا يدري بك أحد، ولا تشعر أنت بأحد حتى ولو كنت في وسط الجموع، لحظات تود لو ما تنتهي، وأن يقف الزمن عندها لو فقهت ما بها من حلاوة ما نجاة، فعِشْها وجرب ولن تخسر؛ فالخاسر هو من ابتعد، والخاسر هو من فقد لذة الوقوف بين يديه، ولذة مناجاته، الخاسر وحده هو من لم يصلِّ كما أراده المولى أن يصلي.

فعُدْ إلى مولاك، حبيبك، خالقك، ربك.. فالحمد كل الحمد لمن سمح لنا أن نقضي بعض الوقت بين يديه في الصلاة، «الصلاة الأخيرة في الرمضان الأخير، ولا تنس أنك بعد السجود ستعيد مرة أخرى التكبير والحمد والذكر، إلى أن تجلس في النهاية بأدب الحضور مع الله تحييه: «التحيات لله، والصلوات الطيبات».. أنت الآن تتحدث مع مولاك، فإياك أن يتشتت فكرك إلى غيره وأنت تتحدث إليه، ليس هذا وفقط، وإنما تسلم على حبيبك المصطفي ﷺ: «السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته».. بالله عليك جلسة هذا شأنها كيف تكون؟ الله ﷻ، ثم السلام على النبي ﷺ، وانتظر، انتظر حتى يرد عليك السلام فتقول وأنت مستشعر أننا أمة واحدة كاملة، لا أمة أفراد متفرقين كل واحد في حاله: «السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين» في كل مكان أينما كانوا، وفي أي زمن كانوا، ثم تصلي وتسلم على محمد، وعلى آله وصحبه الكرام، وتصلي وتسلم على إبراهيم، وعلى آل إبراهيم، ثم تسلم وتعود إلى الدنيا وأنت.. كيف أنت الآن؟ إن

كنت قد خرجت كما دخلت؟ فما صليت!!

وأخيرًا قال ﷺ: «**عَلَيْكُمْ بِقِيَامِ اللَّيْلِ؛ فَإِنَّهُ دَأْبُ الصَّالِحِينَ قَبْلَكُمْ، وَإِنَّ قِيَامَ اللَّيْلِ قُرْبَةٌ إِلَى اللهِ، وَمَنْهَاةٌ عَنْ الْإِثْمِ، وَتَكْفِيرٌ لِلسَّيِّئَاتِ، وَمَطْرَدَةٌ لِلدَّاءِ عَنْ الْجَسَدِ**» [رواه الترمذي].

***

٣- القـــرآن

في ليلة مباركة من ليالي رمضان- في العشر الأواخر- والنبي ﷺ في الأربعين من عمره، أذن الله ﷻ للنور أن يتنزل، وأذن للأرض أن تتصل بالسماء، وأن تتطهر بنور الله، فَجَاءَهُ الْمَلَكُ فَقَالَ: **اقْرَأْ، قَالَ: «مَا أَنَا بِقَارِئٍ» قَالَ: «فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الْجَهْدَ ثُمَّ أَرْسَلَنِي، فَقَالَ: اقْرَأْ، قُلْتُ: مَا أَنَا بِقَارِئٍ، فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي الثَّانِيَةَ، حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الْجَهْدَ، ثُمَّ أَرْسَلَنِي، فَقَالَ: اقْرَأْ، فَقُلْتُ: مَا أَنَا بِقَارِئٍ، فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي الثَّالِثَةَ، ثُمَّ أَرْسَلَنِي فَقَالَ: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۞ خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۞ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ﴾ فَرَجَعَ بِهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ يَرْجُفُ فُؤَادُهُ»**

[رواه البخاري].

وهكذا نزلت أول آية من هذا الكتاب العظيم على النبي الرءوف الرحيم في هذا الشهر العظيم.

وهكذا شهدت أيامه المباركة اتصال الأرض بالسماء، وتنزل الوحي

بالنور والضياء، فأشرقت الأرض بنور ربها، وانقشعت ظلمات الجاهلية الجهلاء.

ومن قبل ذلك شهد هذا الشهر الكريم نزولاً آخر، إنه نزول القرآن جملة من اللوح المحفوظ إلى بيت العزة في السماء الدنيا، وكان ذلك في ليلة القدر: ﴿**إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ**﴾ [القدر: ١]، ﴿**إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ**﴾ [الدخان: ٣]، قال ابن عباس: «أنزل القرآن جملة واحدة إلى سماء الدنيا ليلة القدر، ثم أنزل بعد ذلك في عشرين سنة»[رواه النسائي والحاكم]، وقال ابن جرير: نزل القرآن من اللوح المحفوظ إلى سماء الدنيا في ليلة القدر من شهر رمضان، ثم أنزل إلى محمد ﷺ على ما أراد الله إنزاله إليه.

إنها تلك الليلة الموعودة التي سجلها الوجود كله في فرح وغبطة وابتهال، ليلة الاتصال بين الأرض والملأ الأعلى، ليلة ذلك الحدث العظيم الذي لم تشهد الأرض مثله في عظمته، وفي دلالته، وفي آثاره في حياة البشرية جميعًا.. ﴿**تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا**﴾ [القدر: ٣]، ونور الفجر الذي تعرضه النصوص متناسقًا مع نور الوحي، ونور الملائكة «سَلامٌ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ» [تفسير الظلال:ج٦، ص ٣٩٤٤].

وأي نعمة أعظم من نعمة نزول القرآن؟ نعمة لا يسعها حمد البشر، فحمد الله نفسه على هذه النعمة ﴿**الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا**﴾ [الكهف: ١].

وهكذا إذن شهد شهر رمضان هذا النزول الفريد لكتاب الله، ومن

يوم ذاك ارتبط القرآن بشهر رمضان، ﴿**شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ**﴾ [البقرة: ١٨٥]، ومن يوم ذاك أصبح شهر رمضان هو شهر القرآن.

عن ابن عباس قال: «كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ أَجْوَدَ النَّاسِ، وَكَانَ أَجْوَد مَا يَكُونُ فِي رَمَضَانَ حِينَ يَلْقَاهُ جِبْرِيلُ، وَكَانَ يَلْقَاهُ فِي كُلِّ لَيْلَةٍ مِنْ رَمَضَانَ فَيُدَارِسُهُ الْقُرْآنَ، فَلَرَسُولُ اللهِ ﷺ أَجْوَدُ بِالْخَيْرِ مِنْ الرِّيحِ الْمُرْسَلَةِ»

[رواه البخاري].

وكان الإمام الزهري إذا دخل رمضان يقول: إنما هو قراءة القرآن وإطعام الطعام.

قال ابن الحكم: كان مالك إذا دخل رمضان يفر من قراءة الحديث ومجالسة أهل العلم.

قال عبد الرزاق: كان سفيان الثوري إذا دخل رمضان ترك جميع العبادة، وأقبل على قراءة القرآن.

ورمضان والقرآن عند الله لهما شأن دون العبادات، فهما وحدهما يشفعان للعبد معًا يوم القيامة، قال ﷺ: «**الصِّيامُ والقُرَآنُ يَشْفَعانِ لِلعَبدِ يَومَ القِيامَةِ، يقولُ الصِّيامُ: أيْ ربِّ، مَنَعْتُه الطعامَ والشَّهواتِ بالنَّهارِ، فَشَفِّعْني فيه، ويقولُ القرآنُ: ربِّ مَنَعْتُه النَّومَ بالليلِ، فشَفِّعْني فيه فيَشْفَعانِ**»

[رواه أحمد].

وعن ابن بريدة، عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: «**يَجِيءُ الْقُرْآنُ يَوْمَ**

الْقِيَامَةِ كَالرَّجُلِ الشَّاحِبِ فَيَقُولُ: أَنَا الَّذِي أَسْهَرْتُ لَيْلَكَ، وَأَظْمَأْتُ نَهَارَكَ» [رواه ابن ماجة].

ومن صور اختصاص شهر رمضان بالقرآن الكريم صلاة التراويح، فهذه الصلاة أكثر ما فيها قراءة القرآن، وكأنها شرعت ليسمع الناس كتاب الله مجودًا مرتلاً، ولذلك استحب للإمام أن يختم فيها ختمة كاملة.

وقد كان النبي ﷺ يطيل القراءة في قيام رمضان بالليل أكثر من غيره.[لطائف المعارف: ٣٥٦]، ومما يؤيد ذلك ما رواه الإمام أحمد عن حذيفة قال: أتيت النبي ﷺ في ليلة من رمضان، فقام يصلي، فلما كبر قال: «**اللهُ أكبرُ ذُو المَلَكوتِ والجَبرُوتِ والكِبْرِيَاءِ والعَظَمَةِ**»، ثم قرأ البقرة ثم النساء ثم آل عمران، لا يمر بآية تخويف إلا وقف عندها، ثم ركع يقول: «**سبحان ربي العظيم**» مثل ما كان قائمًا، ثم رفع رأسه فقال: «**سمِع الله لِمَن حمِده، ربنا لك الحمد**» مثل ما كان قائمًا، ثم سجد يقول: «**سبحان ربي الأعلى**» مثل ما كان قائمًا، ثم رفع رأسه فقال: «**رب اغفر لي**» مثل ما كان قائمًا، ثم سجد يقول: «**سبحان ربي الأعلى**» مثل ما كان قائمًا، ثم رفع رأسه فقام، فما صلى إلا ركعتين حتى جاء بلال فآذنه بالصلاة. [رواه أحمد].

وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إِنَّ اللهَّ يَرْفَعُ بِهَذَا الْكِتَابِ أَقْوَامًا، وَيَضَعُ بِهِ آخَرِينَ**» [رواه مسلم].

وقال ﷺ: «**يُؤْتَى يَوْمَ القِيَامَةِ بِالقُرْآنِ وَأَهْلِهِ الذينَ كَانُوا يَعْمَلُونَ بِهِ فِي الدُّنْيَا تَقْدُمُه سورَةُ البَقَرَةِ وَآلِ عِمْرَانَ تُحَاجَّانِ عَنْ صَاحِبِهِمَا**» [رواه مسلم].

وكان عمر ﷺ قد أمر أُبِيَّ بن كعب وتميمًا الداري أن يقوما بالناس في شهر رمضان، فكان القارئ يقرأ بالمائتين في ركعة، حتى كانوا يعتمدون على العصي من طول القيام، وما كانوا ينصرفون إلا عند الفجر، وفي رواية: أنهم كانوا يربطون الحبال بين السواري، ثم يتعلقون بها. [لطائف المعارف:٣٥٦]، وكان بعض السلف يختم في قيام رمضان في كل ثلاث ليالٍ، وبعضهم في كل سبعٍ، منهم قتادة، وبعضهم في كل عشرة، منهم أبو رجاء العطاردي. [لطائف المعارف:٣٥٨].

كل هذا التطويل والقيام من أجل تلاوة القرآن، وتعطير ليالي شهر القرآن بآيات القرآن.

فإذا كان هذا شأن القرآن في رمضان، وإذا كان هذا شأن رسول الله ﷺ والصحابة والتابعين معه، فيجب علينا نحن اليوم أن نتأسى به صلوات الله وسلامه عليه، ونلتمس فيه النجاة، وذلك بالعمل به على ثلاثة محاور:

المحور الأول: الإكثار فيه من القراءة حتى نختمه مرات متتالية على قدر الإمكان، ويكون ذلك مفرقًا على الصلوات، وبعد صلاة الفجر، وبعد صلاة العشاء.

المحور الثاني: أن نعود إلى تفسير معين نلتمس فيه التدبر وما خفي علينا من المعاني؛ لنعيش في رحاب القرآن الكريم كما أراد الله ﷻ.

المحور الثالث: مراجعة ما تم حفظه من قبل، ونجعل له ورد حفظ

جديد، ونكون في ذلك طموحين، بحيث ننظر إلى من استطاع حفظ القرآن كاملاً في شهور معدودات.

لقد شرف الله ﷻ هذه الأمة بكتابه الكريم، وتعهد بحفظه، فلتكن قلوبنا أوعية طاهرة لحفظ كتاب الله، وأجسادنا مطايا طيعة للعمل بما فيه؛ ليشهد لنا يوم القيامة لا علينا، فهو رمضان الأخير الذي نحياه أيامًا مباركة، وإيانا أن نكون ممن يشكوهم النبي ﷺ ﴿**وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا**﴾ [الفرقان: ٣٠].

ندعو الله أن يعيننا على ذلك؛ إنه كريم سميع مجيب الدعاء.

***

٤- ليلة القدر

﴿**إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ، وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ، لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ، تَنَزَّلُ الْمَلائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ، سَلامٌ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ**﴾ [القدر: ١-٥].

فضلها عظيم لمن أحياها، وإحياؤها يكون بالصلاة والقرآن والذكر والاستغفار والدعاء من غروب الشمس إلى طلوع الفجر، وصلاة التراويح في رمضان إحياء لها.

ويقول فضيلة الشيخ الدكتور يوسف القرضاوي: قد نَوَّه القرآن، ونَوَّهَت السُّنَّة بفضل هذه الليلة العظيمة، وأنزل الله فيها سورة كاملة: ﴿**إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ، وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ، لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ،**

تَنَزَّلُ الْمَلائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ، سَلامٌ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ﴾.

- عَظَّمَ القرآنُ شأنَ هذه الليلة، فأضافها إلى (القدر) أي المقام والشرف، وأي مقام وشرف أكثر من أن تكون خيرًا وأفضل من ألف شهر. أي الطاعة والعبادة فيها خير من العبادة في ألف شهر ليس فيها ليلة القدر.

- وألف شهر تساوي ثلاثًا وثمانين سنة وأربعة أشهر، أي أن هذه الليلة الواحدة أفضل من عمر طويل يعيشه إنسان عمره ما يقارب مائة سنة، إذا أضفنا إليه سنوات ما قبل البلوغ والتكليف.

- وهي ليلة تتنزَّل فيها الملائكة برحمة الله وسلامه وبركاته، ويرفرف فيها السلام حتى مطلع الفجر.

- وفي السُّنة جاءت أحاديث جمة في فضل ليلة القدر، والتماسها في العشر الأواخر؛ ففي صحيح البخاري من حديث أبي هريرة: «مَنْ قَامَ لَيْلَةَ الْقَدْرِ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ».

- ويحذر النبي ﷺ من الغفلة عن هذه الليلة، وإهمال إحيائها، حتى لا يُحرم المسلم من خيرها وثوابها، فيقول لأصحابه وقد أظلهم شهر رمضان: «**إِنَّ هَذَا الشَّهْرَ قَدْ حَضَرَكُمْ، وَفِيهِ لَيْلَةٌ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ، مَنْ حُرِمَهَا فَقَدْ حُرِمَ الْخَيْرَ كُلَّهُ، وَلا يُحْرَمُ خَيْرَهَا إِلا مَحْرُومٌ**» [رواه ابن ماجة من حديث أنس، وإسناده حسن].

وكيف لا يكون محرومًا من ضيع فرصة هي خير من ثلاثين ألف فرصة؟

- إن من ضيع صفقة كان سيربح فيها ١٠٠٪ يتحسر على فواتها أيّما تحسر، فكيف بمن ضيع صفقة كان سيربح فيها ٣٠٠٠٠٠٠٪ ثلاثة ملايين في المائة؟!

* أي ليلة هي؟

- ليلة القدر في شهر رمضان يقينًا؛ لأنها الليلة التي أنزل فيها القرآن، وهو أنزل في رمضان؛ لقوله تعالى: ﴿**شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ**﴾ [البقرة: ١٨٥].

✍ والواضح من جملة الأحاديث الواردة أنها في العشر الأواخر؛ لما صح عن عائشة- رضي الله عنها- قالت: «كَانَ رَسُولُ الله صلى الله عليه وسلم يُجَاوِرُ فِي الْعَشْرِ الأَوَاخِرِ مِنْ رَمَضَانَ، وَيَقُولُ: تَحَرَّوْا لَيْلَةَ الْقَدْرِ فِي الْعَشْرِ الأَوَاخِرِ مِنْ رَمَضَانَ» [متفق عليه].

وعن أبي سعيد الخدري ﷺ، أن النبي ﷺ، خرج إليهم صبيحة عشرين فخطبهم، وقال: «**إِنِّي أُرِيتُ لَيْلَةَ الْقَدْرِ ثُمَّ أُنْسِيتُهَا -أَوْ نُسِّيتُهَا- فَالْتَمِسُوهَا فِي الْعَشْرِ الأَوَاخِرِ فِي الْوَتْرِ**» [متفق عليه]، وفي رواية: «**ابتغوها في كل وتر**».

ومعنى (يجاور): أي يعتكف في المسجد. والمراد بالوتر في الحديث الياليِ الوترية، أي الفردية، مثل ليالي: ٢١، ٢٣، ٢٥، ٢٧، ٢٩.

✍ وإذا كان دخول رمضان يختلف- كما نشاهد اليوم- من بلد لآخر، فالليالي الوترية في بعض الأقطار تكون زوجية في أقطار أُخرى،

فالاحتياط التماس ليلة القدر في جميع ليالي العشر.

✍ ويتأكد التماسها وطلبها في الليالي السبع الأخيرة من رمضان، فعن ابن عمر، أن رجالاً من أصحاب النبي ﷺ رأوا ليلة القدر في المنام، في السبع الأواخر، فقال رسول الله ﷺ: «**أَرَى رُؤْيَاكُمْ قَدْ تَوَاطَأَتْ فِي السَّبْعِ الأَوَاخِرِ، فَمَنْ كَانَ مُتَحَرِّيَهَا فَلْيَتَحَرَّهَا فِي السَّبْعِ الأَوَاخِرِ**» [متفق عليه].

✍ ولله حكمة بالغة في إخفائها عنا، فلو تيقنا أي ليلة هي لتراخت العزائم طوال رمضان، واكتفت بإحياء تلك الليلة، فكان إخفاؤها حافزًا للعمل في الشهر كله، ومضاعفته في العشر الأواخر منه، وفي هذا خير كثير للفرد وللجماعة.

✍ وهذا كما أخفى الله تعالى عنا ساعة الإجابة في يوم الجمعة، لندعوه في اليوم كله، وأخفى اسمه الأعظم الذي إذا دعي به أجاب؛ لندعوه بأسمائه الحسنى جميعًا.

✍ وعبادة بن الصامت قال: خَرَجَ النَّبِيُّ ﷺ لِيُخْبِرَنَا بِلَيْلَةِ الْقَدْرِ، فَتَلاحَى رَجُلانِ مِنْ الْمُسْلِمِينَ فَقَالَ: «**خَرَجْتُ لِأُخْبِرَكُمْ بِلَيْلَةِ الْقَدْرِ، فَتَلاَحَى فُلانٌ وَفُلانٌ، فَرُفِعَتْ، وَعَسَى أَنْ يَكُونَ خَيْرًا لَكُمْ**» [رواه البخاري].

علامات ليلة القدر:

وقد ورد لليلة القدر علامات، أكثرها لا يظهر إلا بعد أن تمضي، مثل: أن تظهر الشمس صبيحتها لا شعاع لها، أو حمراء ضعيفة..إلخ.

ومثل: أنها ليلة مطر وريح، أو أنها ليلة طلقة بلجة، لا حارة ولا

باردة.. إلخ ما ذكره الحافظ في الفتح.

وكل هذه العلامات لا تعطي يقينًا بها؛ لأن ليلة القدر في بلاد مختلفة في مناخها، وفي فصول مختلفة أيضًا، وقد يوجد في بلاد المسلمين بلد لا ينقطع عنه المطر، وآخر يصلي أهله صلاة الاستسقاء مما يعاني من المَحْل، وتختلف البلاد في الحرارة والبرودة، وظهور الشمس وغيابها، وقوة شعاعها وضعفه، فهيهات أن تتفق العلامات في كل أقطار الدنيا.

ما يقال في هذه الليلة:

عن عائشة- رضي الله عنها- قالت: أَرَأَيْتَ إِنْ عَلِمْتُ أَيُّ لَيْلَةٍ لَيْلَةُ الْقَدْرِ، مَا أَقُولُ فِيهَا؟ قَالَ ﷺ: «**قُولِي: اللَّهُمَّ إِنَّكَ عُفُوٌّ كَرِيمٌ تُحِبُّ الْعَفْوَ فَاعْفُ عَنِّي**» [رواه ابن ماجة والترمذي]. وفسَّروا الموافقة بالعلم بها، وأن هذا شرط في حصول الثواب المخصوص بها.

ورجح آخرون أن معنى يوافقها: أي في نفس الأمر إن لم يعلم هو ذلك؛ لأنه لا يشترط لحصولها رؤية شيء ولا سماعه، كما قال الإمام الطبري بحق.

وكلام بعض العلماء في اشتراط العلم بليلة القدر كان هو السبب فيما يعتقده كثير من عامة المسلمين، أن ليلة القدر طاقة من النور تُفتح لبعض الناس من السعداء دون غيرهم، ولهذا يقول الناس: إن فلانًا انفتحت له ليلة القدر. وكل هذا مما لا يقوم عليه دليل صريح من الشرع.

فليلة القدر ليلة عامة لجميع من يطلبها، ويبتغي خيرها وأجرها وما

عند الله فيها، وهي ليلة عبادة وطاعة، وصلاة وتلاوة، وذكر ودعاء، وصدقة وصلة، وعمل للصالحات، وفعل للخيرات.

وأدنى ما ينبغي للمسلم أن يحرص عليه في تلك الليلة أن يصلي العشاء في جماعة، والصبح في جماعة، فهما بمثابة قيام الليل؛ ففي الصحيح أنه ﷺ قال: «**مَنْ صَلَّى الْعِشَاءَ فِي جَمَاعَةٍ فَكَأَنَّمَا قَامَ نِصْفَ اللَّيْلِ، وَمَنْ صَلَّى الصُّبْحَ فِي جَمَاعَةٍ فَكَأَنَّمَا صَلَّى اللَّيْلَ كُلَّهُ**» [رواه مسلم]. والمراد: من صلى الصبح بالإضافة إلى صلاة العشاء، كما صرحت بذلك رواية أبي داود والترمذي: «مَنْ صَلَّى الْعِشَاءَ فِي جَمَاعَةٍ كَانَ كَقِيَامِ نِصْفِ لَيْلَةٍ، وَمَنْ صَلَّى الْعِشَاءَ وَالْفَجْرَ فِي جَمَاعَةٍ كَانَ كَقِيَامِ لَيْلَةٍ».

***

٥ - ذكر الموت وقصر الأمل

قال الله تعالى: ﴿**كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ**﴾ [آل عمران: ١٨٥].

وقال تعالى: ﴿**وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ**﴾ [لقمان: ٣٤].

وقال تعالى: ﴿**فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلا يَسْتَقْدِمُونَ**﴾ [النحل: ٦١].

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلا أَوْلادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ، وَأَنْفِقُوا مِنْ مَا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ، وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا وَاللهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [المنافقون: ٩-١١].

وقال تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ، لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ، فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلا يَتَسَاءَلُونَ، فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ، وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ، تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ، أَلَمْ تَكُنْ آَيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ، قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ الْعَادِّينَ، قَالَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلا قَلِيلًا لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ، أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ﴾ [المؤمنون: ٩٩-١١٥].

وقال تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آَمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ [الحديد: ١٦]. والآيات في الباب كثيرة معلومة.

وعن ابن عمر- رضي الله عنهما- قال: «أَخَذَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِمَنْكِبِي فَقَالَ: كُنْ فِي الدُّنْيَا كَأَنَّكَ غَرِيبٌ أَوْ عَابِرُ سَبِيلٍ، وَكَانَ ابْنُ عُمَرَ يَقُولُ: إِذَا

أَمْسَيْتَ فَلا تَنْتَظِرْ الصَّبَاحَ، وَإِذَا أَصْبَحْتَ فَلا تَنْتَظِرْ الْمَسَاءَ، وَخُذْ مِنْ صِحَّتِكَ لِمَرَضِكَ، وَمِنْ حَيَاتِكَ لِمَوْتِكَ» [رواه البخاري].

وعنه أن رسول الله ﷺ قال: «**مَا حَقُّ امْرِئٍ مُسْلِمٍ لَهُ شَيْءٌ يُوصِي فِيهِ يَبِيتُ لَيْلَتَيْنِ إِلاَّ وَوَصِيَّتُهُ مَكْتُوبَةٌ عِنْدَهُ**» [متفق عليه، وهذا لفظ البخاري]، وفي رواية لمسلم: «**يَبِيتُ ثَلاثَ لَيَالٍ**». وقال ابن عمر: مَا مَرَّتْ عَلَيَّ لَيْلَةٌ مُنْذُ سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ ذَلِكَ إِلا وَعِنْدِي وَصِيَّتِي.[رواه مسلم].

وعن أنس ﷺ قال: خَطَّ النَّبِيُّ ﷺ خُطُوطًا، فَقَالَ: «**هَذَا الإِنْسَانُ، وَهَذَا أَجَلُهُ، فَبَيْنَمَا هُوَ كَذَلِكَ إِذْ جَاءَ الخَطُّ الأَقْرَبُ**» [رواه البخاري].

وعن ابن مسعود ﷺ قال: «خَطَّ النَّبِيُّ ﷺ خَطًّا مُرَبَّعًا، وَخَطَّ خَطًّا فِي الْوَسَطِ خَارِجًا مِنْهُ، وَخَطَّ خُطَطًا صِغَارًا إِلَى هَذَا الَّذِي فِي الْوَسَطِ مِنْ جَانِبِهِ الَّذِي فِي الْوَسَطِ، وَقَالَ: هَذَا الإِنْسَانُ، وَهَذَا أَجَلُهُ مُحِيطٌ بِهِ، أَوْ قَدْ أَحَاطَ بِهِ، وَهَذَا الَّذِي هُوَ خَارِجٌ أَمَلُهُ، وَهَذِهِ الْخُطَطُ الصِّغَارُ الأَعْرَاضُ، فَإِنْ أَخْطَأَهُ هَذَا نَهَشَهُ هَذَا، وَإِنْ أَخْطَأَهُ هَذَا نَهَشَهُ هَذَا» [رواه البخاري].

وعن أبي هريرة ﷺ، أن رسول الله ﷺ قال: «**بادِرُوا بِالأَعْمَالِ سَبْعًا، هَلْ تَنْتَظِرُونَ إِلاَّ فَقرًا مُنسيًا، أَوْ غِنًى مُطغِيًا، أَوْ مَرَضًا مُفسِدًا، أَوْ هَرَمًا مُفْنِدًا، أَوْ مَوتًا مُجْهِزًا، أَوْ الدَّجَّالَ فَشَرُّ غَائِبٍ يُنْتَظَرُ، أَوْ السَّاعَةَ، فالسَّاعَةُ أدهَى وَأَمَرُّ**» [رواه الترمذي وقال: حديث حسن].

وعنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**أَكْثِرُوا ذِكْرَ هَاذِمِ اللَّذَّاتِ- يَعْنِي الْمَوْتَ**» [رواه الترمذي وقال: حديث حسن].

وعن أبي بن كعب ﷺ: كَانَ رسول الله ﷺ إِذَا ذَهَبَ ثُلُثُ اللَّيْلِ قَامَ فَقَالَ: «**يَا أَيُّهَا النَّاسُ، اذْكُرُوا اللهَ، جَاءتِ الرَّاجِفَةُ، تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ، جَاءَ الْمَوْتُ بِمَا فِيهِ، جَاءَ الْمَوْتُ بِمَا فِيهِ**» **قُلْتُ: يَا رسول الله، إِنِّي أُكْثِرُ الصَّلاَةَ عَلَيْكَ، فَكَمْ أَجْعَلُ لَكَ مِنْ صَلاَتِي؟ فَقَالَ: «مَا شِئْتَ» قُلْتُ: الرُّبُع، قَالَ: «مَا شِئْتَ، فَإِنْ زِدْتَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكَ» قُلْتُ: فَالنِّصْف؟ قَالَ: «مَا شِئْتَ، فَإِنْ زِدْتَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكَ» قُلْتُ: فالثُّلُثَيْنِ؟ قَالَ: «مَا شِئْتَ، فَإِنْ زِدْتَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكَ» قُلْتُ: أجعَلُ لَكَ صَلاَتِي كُلَّهَا؟ قَالَ: «إِذاً تُكْفى هَمَّكَ، وَيُغْفَر لَكَ ذَنْبكَ»**

[رواه الترمذي وقال: حديث حسن].

إنني هنا في هذا المقام، وفي هذه الأيام التي نودّ أن نستثمرها أفضل استثمار لا أريد بذكر الموت وقصر الأمل أن يترك الإنسان السعي في الحياة وإصلاحها، وإعلاء شأن نفسه والمسلمين، بأن يكونوا جديرين بالخلافة في الأرض، وإنما المراد بذكر الموت هو الذكر الذي يبعدك عن المعاصي، ويقربك أكثر من الطاعة، فالذي يدخل الموت في حساباته اليومية متفوق في عمله، متفوق في دراسته، متفوق في وظيفته، متفوق في صنعته، متفوق في تجارته؛ لأن طبيعة الحياة لا تتناقض مع الموت، ولكن الموت يحجزه عن معاصي الله ﷻ.

ذكر الموت معناه أن تتقدم بأمتك وفي نيتك أن ترضي ربك، وأن ترفع شأن دينك.

☠ ذكر الموت معناه أن تسعى في الحياة وفي نيتك أن ترتفع بصورة المسلم إلى الأعالي، وأنه وحده الأحق بالريادة.

☠ ذكر الموت يجعلك حين تهم بمعصية، أو تهم بظلم إنسان تتذكر فيردعك عما تريد فعله.

☠ ذكر الموت يجعلك وأنت تتعب وتشقى وتسعى على رزقك ورزق أبنائك سعيدًا؛ لأنك تكفيهم عن الحرام.. يجعلك راضيًا بعطاء الله، فيتساوى عندك المنع والعطاء، ويتساوى عندك الكثير والقليل، وتكون مستعدًا للقاء الموت في أي لحظة، ويكون ذلك وأنت في قمة نجاحك وعطائك كإنسان مسلم مميز بإسلامه وفهمه، ويعيش غير حزين لما فاته، ويموت وهو غير نادم على عمر ضاع وهو لا يدري.. وهذا سعد بن الربيع، هذا الصحابي الجليل الذي افتقده النبي ﷺ بعد إحدى المعارك فسأل عنه، لا أحد يعلم عنه شيئًا، فكلف صحابيًّا آخر أن يتفقده في ساحة المعركة، فانطلق إلى ساحة المعركة فإذا هو في حالة النزع، فقال له:

يا سعد، إن رسول الله ﷺ أمرني أن أتفقدك، أأنت في الأحياء أم في الأموات؟

قال: في الأموات- في النزع الأخير- ولكن أبلغ رسول الله مني السلام.

قال له وهو على وشك الموت: أبلغ رسول الله مني السلام، وقل له: جزاك عنا خير ما جزى نبيًّا عن أمته، وقل لأصحابه: لا عذر لكم عند الله إذا خُلِص إلى نبيكم وفيكم عين تطرف.

يبدو أن هذا الصحابي كان في أعلى درجات السعادة- فبطولتك تظهر عند الموت - حينما يغادر الإنسان الدنيا بكاملها، كل شيء جمعه في الحياة

يفقده في طرفة عين، لذلك قال تعالى: ﴿**وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلا مَتَاعُ الْغُرُورِ**﴾ [الحديد: ٢٠]، وما له منها إلا ما كان لله، ولحظة الموت ينجلي كل شيء؛ ﴿**فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ**﴾ [ق: ٢٢]، ويرى الإنسان وتتضح رؤيته لما لم يكن يراه من قبل، لذا فإن كان صادقًا مع نفسه، صادقًا مع الله يموت وهو على هذه الدرجة من اليقين والسعادة.

فلنتيقظ، ولترتفع الهمم، ولنستعد للموت ببناء الدنيا وإعمارها لله، وتطهيرها بالقرآن، ورفع راية لا إله إلا الله، وقد قال أبو بكر الصديق ﷺ في إحدى خطبه: أين الوضاءون الحسنة وجوههم المعجبون بشبابهم؟ أين الملوك الذين بنوا المدائن وحصنوها؟ أين الذين كانوا يعطون الغلبة في مواطن الحرب؟ قد تضعضع بهم الدهر، فأصبحوا في ظلمات القبور، فالنجاة النجاة.

***

٦- المحبـــــة

جاء في الصحيحين، عن أنس بن مالك ﷺ، أن رسول الله ﷺ قال: «**ثَلاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلاوَةَ الإِيمَانِ: أَنْ يَكُونَ اللهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا، وَأَنْ يُحِبَّ الْمَرْءَ لا يُحِبُّهُ إِلا للهِ، وَأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ فِي النَّارِ**».

في هذا الحديث يبيِّن النبي ﷺ حقيقة مفادها: أن الإيمان كالثمرة، كلما اكتمل نموّها ونضوجها زادت حلاوتها، ثم بيَّن علامات تدل على ذلك،

فذكر ثلاث علامات أولاها: أن يكون حب الله تعالى وحب رسوله ﷺ مقدمًا على حب غيرهما،.فهذا أعلى أنواع الحب، وقمة الهرم الإيماني.

يقول الإمام ابن القيم في كتابه «الداء والدواء»: المحبوب قسمان: محبوب لنفسه، ومحبوب لغيره..وكل ما سوى المحبوب الحق فهو محبوب لغيره، وليس شيء يُحب لذاته إلا الله وحده؛ لأنه سبحانه المتفرد بالكمال المطلق، والجمال التام، وكل ما سواه هو تبع لمحبته سبحانه، كمحبة الملائكة والأنبياء والأولياء، التي هي لازمة لمحبة الله ﷻ؛ لأن محبته توجب محبة من يحبه، فحب الله تعالى هو أعلى أنواع الحب.

قال الإمام الغزالي: وكمال الحب أن يحب العبد ربه ﷻ بكل قلبه، وما دام يلتفت إلى غيره، فزاوية من قلبه مشغولة بغيره.

فحال من يحب مولاه بحق أن يسلم وجهه وأمره وقلبه وكيانه كله لله تعالى، ولذا من أحب الله بحق أطاع أمره، واتبع شرعه.

يقول الله تعالى: ﴿**قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ۞ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ**﴾ [آل عمران: ٣١،٣٢].

فالمخالفة والعصيان دليل كذب المحبة أو نقصها، ويقسم الله تعالى بذاته العلية فيقول: ﴿**فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ**﴾ [النساء: ٦٥].

ولذا فطريق حب الله تعالى يتمثل في ترك المعاصي، وفي أداء الفرائض، والإكثار من النوافل، فهو طريق عمليّ إذن، وقد قيل: من أحب أن يعلم ما

له عند الله ﷻ، فلينظر ما لله ﷻ عنده، فإن الله تبارك وتعالى ينزل العبد منه حيث أنزله العبد من نفسه، ومن أوفى بهذا الحب نال محبة الله تعالى.. ويا لها من كرامة إذا حصلت !!

وإذا ترسخت محبة الله في قلب المؤمن، وتعمقت جذورها، كان الله ﷻ هو الغاية في كل شيء، وضحَّى من أجله بكل شيء؛ لأنه شعر بحلاوة الإيمان، ولذة اليقين، فأصبحت بقية الدنيا كلها لا قيمة لها أمام هذه اللذة.

قال الله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ**﴾ [المائدة: ٥٤].

وهذا الحب الذي رسخ في القلب، وأوصل العبد بربه، لا يعرفه إلا من وجد إيقاع صفات الله تعالى في حسه ونفسه وشعوره وكينونته كلها، ولا يقدّر حقيقة هذا الحب إلا الذي عرف حقيقة المحبوب، وهو الله تعالى.

وحب الله تعالى لعبده أمر لا يقدر على إدراك قيمته إلا من عرف الله تعالى، إذ إن حب الله تعالى لعبده نعمة لا يدركها إلا من ذاقها، وذاق حلاوتها، وحلاوة القرب من ربه ﷻ، ذلك القرب الهائل العظيم المليء بالفضل الجزيل.

إنها نعمة، نعمة الله ﷻ على عبده بهدايته لحبه، وتعريفه هذا المذاق الجميل الفريد، الذي لا نظير له في مذاقات الحب كلها.

وقد وصف الله تبارك وتعالى المؤمنين بشدة حبهم له من غيرهم الذين اتخذوا أحبابًا من دونه حينما قال عز من قائل: ﴿**وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ**

﴿دُونِ اللَّهِ أَنْدَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبّاً لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥].

«وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبّاً لِلَّهِ»؛ لأن قلوبهم لم تعمر إلا بذكر الله تعالى، ولم تَصْفُ إلا بحب الله ﷻ، أما أولئك الذين انطوت نفوسهم على محبة ما يحلو لهم في هذه الدنيا، فقلوبهم بعيدة عن هذا الحب الإلهي، بعيدة عن هذا الصفاء الروحي، والاتصال القلبي.

وإذا أحببت الله حقًّا لم تر في فعله بك أي سوء، بل لن تجد إلا الرضا بما يفعله، سيصل حالك إلى ألاَّ تسأله إلا الرضا عنك، فكل ما يجريه عليك يرضيك، وكل ما يقدره لك تحبه؛ لأنه ارتضاه لك، وتلك منزلة سامية لا يصلها إلا ذو حظ عظيم، أن يكون هواك هو ما يجريه عليك ربك، فلا تحاسبه لمَ فعلت ما فعلت؟ أو لماذا أنا وحدي؟ أو لو كان كذا لكان كذا؟ إن الحب المطلق يتبعه الرضا المطلق، وساعتها سترى من الله ما لم تكن تحلم به يومًا، ستكون من أوليائه الذين يعادي من يعاديهم.

جاء في صحيح البخاري، عن أبي هريرة ﷺ، أن رسول الله ﷺ قال: «**إِنَّ اللَّهَ قَالَ: مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ، وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ، وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا، وَإِنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ وَلَئِنْ اسْتَعَاذَنِي لَأُعِيذَنَّهُ، وَمَا تَرَدَّدْتُ عَنْ شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدُّدِي عَنْ نَفْسِ الْمُؤْمِنِ؛ يَكْرَهُ الْمَوْتَ، وَأَنَا أَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ**».

هذا الحديث القدسي قيل: إنه أشرف حديث في ذكر الأولياء؛ لما يحويه من تكريم الله تعالى لهم، وبيان محبته إياهم، ودفاعه عنهم، وتأييده لهم في ألطف عبارة.

والولي هو العبد القريب من الله ﷻ، تولى ربه ﷻ بالطاعة، فتولاه الله تعالى بالنصرة، ولذا يحذّر الله تعالى من عادى وليًّا له، فيعلمه بأنه محارب له، ومن حاربه الله أهلكه ولا شك، ثم يبين الحق سبحانه وتعالى طريق الولاية فيقول: «**وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ، وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ**»، فطريق الولاية مفتوح لكل من شاء، وليس حكرًا على قوم دون غيرهم، ولذا قال تعالى في كتابه العزيز: ﴿**أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ ۞ الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ**﴾ [يونس:٦٢، ٦٣].

فالأمر أوضح من أن يلتبس على أحد، فكل من آمن بالله واجتهد في تقواه سبحانه، فهو وليّ من أولياء الله تعالى.

وهذا الحديث الشريف يعطي بيانًا عمليًّا لنيل الولاية والمحبة الإلهية، فيجعل أداء الفرائض، ثم الاجتهاد في النوافل هما المعراج إلى محبة الله تعالى، وما سوى ذلك لن يوصل إلى شيء، بل من ادعى المحبة وتعاطى المعاصي فهو كاذب في دعواه، معذَّبٌ بسبب ما اقترفته يداه، ولذا يقول تعالى: ﴿**وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُم**﴾ [المائدة: ١٨]، إذ كيف يُتقرَّب إلى الله تعالى بمعصيته؟! ومن ذلك

التقرب إلى الله ﷻ بالشرك! كما قال سبحانه عن المشركين: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللهَّ زُلْفَى إِنَّ اللهَّ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللهَّ لا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ﴾ [الزمر: ٣].

وبعد الفرائض تأتي النوافل، وهي وإن اشتركت مع الفريضة في الأهمية، إلا أنها دونها في المرتبة؛ لأن ترك الفريضة باب العقوبة، وليست النافلة كذلك، ولذا فإن من شغله الفرض عن النفل فهو معذور، أما من شغله النفل عن الفرض فهو مغرور.

ثم يقول الحق سبحانه: «**فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا، وَإِنْ سَأَلَنِي لأُعْطِيَنَّهُ، وَلَئِنْ اسْتَعَاذَنِي لأُعِيذَنَّهُ**».

والمعنى أن الله تعالى يوفق العبد ويعينه ويعصمه، فيوفقه إلى استعمال جوارحه في مرضاته ﷻ، ويعينه ويعطيه القوة على الطاعات، كما في قوله تعالى لنبيه ﷺ: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللهَّ رَمَى﴾ [الأنفال: ١٧]، ثم كذلك يعصمه من استعمال جوارحه في المحرمات، كما في قصة يوسف عليه السلام: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلا أَنْ رَأى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾ [يوسف: ٢٤].

ثم يقول تعالى: «**وَإِنْ سَأَلَنِي لأُعْطِيَنَّهُ، وَلَئِنْ اسْتَعَاذَنِي لأُعِيذَنَّهُ**»، وهذه كرامة أخرى للولي أن يستجيب الله دعاءه، وأن يجيره إذا استجار به، وكم سمعنا عن أناس كانوا مجابي الدعوة، ومنهم سعد بن أبي وقاص ﷺ، قال

عنه النبي ﷺ: «**إِنَّ مِنْ عِبَادِ اللهِ مَنْ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللهِ لأَبَرَّهُ**» [متفق عليه].

شكاه رجل إلى عمر بن الخطاب ﷺ ظلمًا، فقال سعد ﷺ: اللهم إن كان كاذبًا فأعمِ بصره، وأَطِلْ عمره، وعرّضه للفتن. فأجاب الله تعالى دعوته، فأعمى الرجل وفتنه، حتى إنه لَمَّا أسنَّ كان يتعرّض للجواري في السكك ويقول: شيخ كبير مفتون أصابتني دعوة سعد.

وكم من أناس استجاروا بربهم فأجارهم، وهو القائل ﷻ: ﴿**إِنَّ اللهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا**﴾ [الحج: ٣٨].

ويحكى أنه كان هناك رجل من الخوارج يغشى مجلس الحسن البصريّ فيؤذيهم، فقال الحسن: اللهم قد علمت أذاه لنا فاكفناه بما شئت. فخرّ الرجل من قامته، فما حُمل إلى أهله إلا ميتًا على سريره.

ثم قال: «**وَمَا تَرَدَّدْتُ عَنْ شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدُّدِي عَنْ نَفْسِ الْمُؤْمِنِ؛ يَكْرَهُ الْمَوْتَ، وَأَنَا أَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ**».

التردد في حق الله تعالى غير جائز، ولكن هذا من باب تقريب المعنى للأذهان، فالموت حق ولابد منه؛ ولكن النفس جُبلت على حب الحياة، ولذا تكره الموت، وقد تكرهه كذلك لصعوبة سكراته، ولذا يكره الله تعالى مساءة العبد، ولكن لابد له من الموت؛ لأنه شيء كتبه الله تعالى ولا مفرّ منه، يقول سبحانه: ﴿**كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ**﴾ [آل عمران: ١٨٥].

٧ - التفكر في خلق الله

لقد أمر الله ﷻ بالتفكر في آيات خلقه في مواضع كثيرة من كتابه الكريم، فقال تعالى: ﴿**الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً**﴾ [آل عمران: ١٩١].

وعن عطاء قال: انطلقت يومًا أنا وعبيد بن عمير إلى عائشة- رضي الله عنها- فكلمتنا من وراء حجاب فقالت: يا عبيد، ما يمنعك من زيارتنا؟ قال: قول رسول الله ﷺ: «**زُرْ غِبًّا تَزْدَدْ حُبًّا**» [رواه الطبراني في الكبير]، قال عمير: فأخبرينا عن أعجب ما رأيته من رسول الله ﷺ قال: فبكت وقالت: كان أمره كله عجبًا، أتاني في ليلتي حتى مس جلده جلدي ثم قال: «ذَرِينِي أَتَعبَّدُ لِرَبِّي ﷻ»، فقام إلى القربة فتوضأ منها، ثم قام يصلي فبكى حتى بل لحيته، ثم سجد حتى بل الأرض، ثم اضطجع على جنبه حتى أتى بلال يؤذنه بصلاة الصبح، فقال: يا رسول الله، ما يبكيك وقد غفر لك ما تقدم من ذنبك؟ فقال: «وَيْحَك يا بِلاَلُ، ومَا يَمْنَعُني أنْ أبْكيَ وقَدْ أنْزلَ اللهُ تعالى عليَّ في هذهِ الليلةِ آيةً «إن في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب»، ثم قال: «ويلٌ لِكُلِّ مَن قرَأَهَا ولَمْ يَتفَكَّرْ فِيها» [رواه ابن حبان في صحيحه].

وقال عمر بن عبد العزيز: التأمل في نعم الله أفضل عبادة.

وقال أبو الحسن: تفكر ساعة خير من قيام ليلة.

وقال يوسف بن أسباط: إن الدنيا لم تخلق لينظر إليها، بل لينظر بها إلى الآخرة.

لقد حرص الصالحون على أن يتفكروا وهم يسبحون الله ويحمدونه، أو يكبرونه، أو يوحدونه؛ لأن الذكر والفكر يعمقان معرفة الله في القلب، قال تعالى: ﴿**يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ، وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ**﴾ [النحل: ١١-١٢].

ويقول الدكتور زغلول النجار- أستاذ علم الأرض: والعلم كل يوم يكتشف لنا المزيد من بدائع صنع الله، التي أوضح منها الكثير في كتابه الكريم، والتي يكتشفها غير المسلمين للأسف الشديد، ومنها ما يتعلق بقوله تعالى: ﴿**إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ**﴾ [آل عمران: ٩٦]. فما الذي توصل إليه العلم في ذلك؟

بعد عقود من البحث العلمي توصل العلماء في منتصف الستينيات من القرن الماضي إلى أن الأرض في مرحلة من مراحل خلقها كانت مغمورة بالماء بشكل كامل، ثم شاءت إرادة الله أن يفجر قاع هذا المحيط الغامر بثورة بركانية عنيفة، ظلت تلقي بحممها التي تراكمت فوق بعضها البعض مكونة سلسلة جبلية وسط هذا المحيط، واستمرت هذه السلسلة في النمو والارتفاع حتى ظهرت قمتها فوق سطح الماء مكونة أول جزء من اليابسة

على هيئة جزيرة بركانية، وباستمرار النشاط البركاني نمت هذه الجزيرة الأولية بالتدريج بواسطة الثورات البركانية المتلاحقة، التي أضافت إليها مساحات جديدة من اليابسة، محولة إياها إلى قارة كبيرة تعرف باسم القارة الأم، أو «بانجيا»، وهذا النمو بالإضافة إلى المراحل الأخرى هو الدحو أو المد والبسط، وهو تعريف دقيق لعمليات مد اليابسة بواسطة الثورات البركانية.

وشاءت الإرادة الإلهية بعد اكتمال تكوُّن القارة الأمّ، أن يمزقها بواسطة شبكة هائلة من الصدوع العميقة، التي شكلت خسوفًا أرضية غائرة قسمت تلك القارة الأم إلى القارات السبع الحالية، والتي كانت قديمًا أشد تقاربًا لبعضها، ثم بدأت في الزحف والتباعد حتى وصلت إلى مواقعها الحالية.

وقد روي عن الرسول ﷺ قوله: «**كانت الكعبة خشفة على الماء فدحيت منها الأرض**» [رواه عبد الرازق في مصنفه]، وهناك حديث آخر يقول فيه: «**إنه- أي البيت الحرام- كان أول ما ظهر على وجه الماء عند خلق السموات والأرض زبدة أي كتلة من الزبد بيضاء فدحيت الأرض من تحته**» [رواه الأزرقي في أخبار مكة]، والحقيقة العلمية أن يابسة مكة تتوسط الأرض، وأن اليابسة تحت الكعبة تعتبر أقدم جزء من الغلاف الصخري للأرض على الإطلاق.

وأما عن مقام إبراهيم، فهو الصخرة التي قام عليها إبراهيم وهو يرفع

القواعد من البيت، وتحمل الصخرة آية بينة، وهي أنه على الرغم من صلابتها الشديدة، فإنها تحمل طبعة غائرة لقدمي أبي الأنبياء، ولا شك أن لين هذه الصخرة الصلبة إلى الحد الذي يمكنها من حمل طبعة قدمي هذا النبي الكريم معجزة بكل المقاييس العلمية، ويقف العلم عاجزًا عن إمكانية تفسيرها، وقد جاء في الأثر، أن هذا المقام كان يرتفع بإبراهيم عليه السلام حتى يضع الحجر في مكانه المحدد من بناء الكعبة، ثم يهبط به ليتناول حجرًا آخر من ابنه إسماعيل.

وتتميز الكعبة بأنها مبنية بأضلاعها الأربعة في الاتجاهات الأربعة الأصلية تمامًا، فضلعها المطل على حجر إسماعيل، والذي يضم الركنين العراقي والشامي يقام في اتجاه الشمال الحقيقي، ويقابله في اتجاه الجنوب الضلع الذي يضم ركن الحجر الأسود والركن اليماني، وضلعها الذي به الباب والملتزم، والذي يضم كلاً من الحجر الأسود والركن العراقي يواجه الشرق تمامًا، ويقابله الضلع الغربي الذي يضم كلاً من الركنين الشامي واليماني.

ولا شك أن تحديد تلك الاتجاهات بهذه الدقة في زمن موغل في التاريخ كالذي بنيت فيه الكعبة ينفي إمكانية كونها عملاً بشريًّا.

ويعتبر الحجر الأسود من الأشياء التي تتضمن إعجازًا علميًّا أسهم في دخول عدد من غير المسلمين في الإسلام. كيف ذلك؟

هناك أحاديث نبوية كثيرة تؤكد فضل الحجر الأسود ومكانته التي

تختلف عن أي حجر على ظهر الأرض، حيث قال ﷺ: «**الحَجَرُ الأَسْوَدُ نزَل به مَلَكٌ مِن السماءِ**» [رواه الأزرقي في أخبار مكة]، وقال أيضًا: «**نَزَلَ الْحَجَرُ الأَسْوَدُ مِنْ الْجَنَّةِ وَهُوَ أَشَدُّ بَيَاضًا مِنْ اللَّبَنِ، فَسَوَّدَتْهُ خَطَايَا بَنِي آدَمَ**» [رواه الترمذي]. ومما ورد عن الرسول ﷺ كذلك قوله: «**إِنَّ الرُّكْنَ وَالْمَقَامَ يَاقُوتَتَانِ مِنْ يَاقُوتِ الْجَنَّةِ**» [رواه الترمذي]، وقوله ﷺ: «**ولَوْلاَ مَا مَسَّهُما مِن خَطايَا بَنِي آدمَ لأَضَاءَ مَا بينَ المشرقِ والمغربِ، وما مَسَّهُما مِن ذِي عَاهَةٍ ولاَ سَقَمٍ إلا شُفِي**» [رواه البيهقي في شعب الإيمان].

وحين قرأ المستشرقون هذه الأحاديث النبوية ظنوا الحجر الأسود قطعة من البازلت الذي جرفته السيول وألقت به إلى منخفض مكة، ولذلك حاولت الجمعية الملكية الجغرافية البريطانية التأكد من ذلك وإثباته، فاستأجرت ضابطًا اسمه ريتشارد فرانسيس بيرتون، الذي جاء إلى الحجاز في هيئة حاج أفغاني في منتصف القرن التاسع عشر، وبالتحديد عام ١٨٥٣، وسرق جزءًا من الحجر الأسود، وفر به إلى بريطانيا، وبدراسة العينة ثبت أنها من أحجار السماء؛ لأنها تشبه أحجار النيازك وإن تميزت بتركيب كيميائي ومعدني خاص.

وكان هذا الاكتشاف سببًا في إسلامه، وسجل قصته في كتاب من جزأين أسماه: (رحلة إلى مكة).

ومن آليات التفكر في خلق الله ﷻ وقدرته وإعجازه ذلك المخ البشري المتكون من مليارات الخلايا العصبية العجيبة، والتي أعجزت الفكر

البشري عن اكتشاف كل قدراته حتى الآن، ثم القلب، تلك المضخة التي لا تكل ولا تمل من العمل، سواء في صحو الإنسان أو منامه، والذي يضخ يوميًّا ٢٥٠ ألف لتر من الدم، ثم تلك المفاصل وعجيب خلقها، بحيث تيسر على الإنسان حركته، وكذلك كل عضو من أعضاء الإنسان، وكيف يعمل. وينبهنا العليم الخبير بذلك فيقول: ﴿**وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلا تُبْصِرُونَ**﴾ [الذاريات: ٢١]. فالإنسان هو المعجزة الكبرى، والتي تدل على قدرة الخالق اللامتناهية، ومع كل تفكير في هذه القدرة لا يسعنا إلا أن نسبح بحمده، والحديث في هذا المجال لا ينتهي، وليس هنا مجاله، وإنما أردنا فقط أن ننوه إلى ذلك الاتجاه، فهو بحر واسع لا نهاية له، ولكن فيه العلم والمعرفة والتقرب منه سبحانه، أو كما قال سبحانه: ﴿**إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ**﴾ [فاطر: ٢٨].

***

٨- الذكـــــر

ما أحلى ذكر الله! وما أعذبه على الألسنة! وما أروحه في القلوب! فما من شيء يزيل الهم، ويريح القلوب مثل ذكره جل شأنه، ألسنا نحبه سبحانه وتعالى؟ أليس المحب يحب ذكر محبوبه على الدوام؟ وهكذا فمن علامات حبك لله ذكرك إياه.. وهل يدعي مُدّعٍ حبه

دون ذكره؟ كيف ذلك؟ والذكر مقام محمود من مقامات العابدين.. وها نحن في العشر الأواخر من رمضان، وهاهي الأيام تمر ويكاد العمر بأكمله ينقضي، فلنلق الله ﷻ على أكثر ما يحب أن نكون ونحن له ذاكرون، يقول الله تبارك وتعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا**﴾ [الأحزاب: ٤١]، وقال تعالى: ﴿**وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ**﴾ [الأحزاب: ٣٥]، أي: كثيرًا.

ففيه الأمر بالذكر بكثرة؛ لشدة حاجة العبد إليه، وعدم استغنائه عنه طرفة عين.

وقال الله ﷻ: ﴿**وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى، قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا، قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آَيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى**﴾ [طه:١٢٤-١٢٦].

وقال سبحانه: ﴿**فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلا تَكْفُرُونِ**﴾ [البقرة: ١٥٢].

عن معاذ بن جبل ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**أَلا أُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرِ أَعْمَالِكُمْ، وَأَزْكَاهَا عِنْدَ مَلِيكِكُمْ، وَأَرْفَعِهَا فِي دَرَجَاتِكُمْ، وَخَيْرٌ لَكُمْ مِنْ إِنْفَاقِ الذَّهَبِ وَالْوَرِقِ، وَخَيْرٌ لَكُمْ مِنْ أَنْ تَلْقَوْا عَدُوَّكُمْ فَتَضْرِبُوا أَعْنَاقَهُمْ، وَيَضْرِبُوا أَعْنَاقَكُمْ**». قالوا: بلى يا رسول الله. قال: «**ذِكْرُ اللَّهِ تَعَالَى**» [رواه الترمذي].

وفي صحيح البخاري، عن أبي موسى ﷺ، عن النبي ﷺ قال: «**مَثَلُ**

الَّذِي يَذْكُرُ رَبَّهُ وَالَّذِي لَا يَذْكُرُ رَبَّهُ مَثَلُ الْحَيِّ وَالْمَيِّتِ».

وفي الصحيحين، عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**يَقُولُ اللهُ تَعَالَى: أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي، وَأَنَا مَعَهُ إِذَا ذَكَرَنِي، فَإِنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي، وَإِنْ ذَكَرَنِي فِي مَلإٍ ذَكَرْتُهُ فِي مَلإٍ خَيْرٍ مِنْهُمْ، وَإِنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ بِشِبْرٍ تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ ذِرَاعًا، وَإِنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ ذِرَاعًا تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ بَاعًا، وَإِنْ أَتَانِي يَمْشِي أَتَيْتُهُ هَرْوَلَةً»**.

وقال أبو الدرداء ﷺ: لكل شيء جلاء، وإن جلاء القلوب ذكر الله ﷻ.

ولا ريب أن القلب يصدأ، وجلاؤه الذكر، فإنه يجلوه حتى يدعه كالمرآة البيضاء، فإذا ترك الذكر صدئ، فإذا ذكره جلاه، وصدأ القلب بأمرين: بالغفلة وبالذنب، وجلاؤه بشيئين: بالاستغفار والذكر، قال تعالى: ﴿**وَلا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا**﴾ [الكهف: ٢٨].

وقال ﷺ: «**لا يَقْعُدُ قَومٌ يَذكُرُونَ اللهَ إِلاَّ حَفَّتْهُمُ المَلائِكَةُ، وغَشِيَتْهُمُ الرَّحْمَةُ، وَنَزَلَتْ عَلَيْهِمْ السَّكِينَةُ، وَذَكَرَهُمُ اللهُ فِيمَنْ عِنْدَهُ**» [رواه مسلم].

وعن أبي سعيد الخدري ﷺ قال: **خَرَجَ مُعَاوِيَةُ عَلَى حَلْقَةٍ فِي الْمَسْجِدِ فَقَالَ: مَا أَجْلَسَكُمْ؟ قَالُوا: جَلَسْنَا نَذْكُرُ اللهَّ، قَالَ: آللهَّ مَا أَجْلَسَكُمْ إِلا ذَاكَ؟ قَالُوا: وَاللهَّ مَا أَجْلَسَنَا إِلا ذَاكَ، قَالَ: أَمَا إِنِّي لَمْ أَسْتَحْلِفْكُمْ تُهْمَةً لَكُمْ، وَمَا كَانَ أَحَدٌ بِمَنْزِلَتِي مِنْ رَسُولِ اللهَّ ﷺ أَقَلَّ عَنْهُ حَدِيثًا مِنِّي، وَإِنَّ رَسُولَ اللهَّ ﷺ خَرَجَ عَلَى حَلْقَةٍ مِنْ أَصْحَابِهِ فَقَالَ: «مَا أَجْلَسَكُمْ؟» قَالُوا: جَلَسْنَا نَذْكُرُ اللهَّ وَنَحْمَدُهُ عَلَى مَا هَدَانَا لِلإِسْلامِ، وَمَنَّ بِهِ عَلَيْنَا، قَالَ: «آللهَّ مَا أَجْلَسَكُمْ إِلا**

ذَاكَ؟» قَالُوا: وَاللهِ مَا أَجْلَسَنَا إِلا ذَاكَ، قَالَ: أَمَا إِنِّي لَمْ أَسْتَحْلِفْكُمْ تُهْمَةً لَكُمْ، وَلَكِنَّهُ أَتَانِي جِبْرِيلٌ فَأَخْبَرَنِي أَنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ يُبَاهِي بِكُمْ الْمَلائِكَةَ»[رواه مسلم].

وقال ﷺ: «لَيْسَ يَتَحَسَّرُ أَهْلُ الْجَنَّةِ إِلا عَلَى سَاعَةٍ مَرَّتْ بِهِمْ لَمْ يَذْكُرُوا اللهَ فِيهَا» [رواه الطبراني في الكبير].

وإذا أردنا أن نحصي فوائد كل ذكر لطال بنا المقام، ولكننا سنذكر نماذج فقط لنعلم أن الذكر كنز لا تنقضي عجائبه، قال ﷺ: «كَلِمَتَانِ خَفِيفَتَانِ عَلَى اللِّسَانِ، ثَقِيلَتَانِ فِي الْمِيزَانِ، حَبِيبَتَانِ إِلَى الرَّحْمَنِ: سُبْحَانَ اللهِ الْعَظِيمِ، سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ» [متفق عليه].

وقال ﷺ: «ألاَ أدُلُّكَ على كلمةٍ مِن تحتِ العَرْشِ مِن كَنزِ الجَنَّةِ؟ تقولُ: لاَ حَولَ ولاَ قُوَّةَ إلاَّ باللهِ، فيقولُ اللهُ: أسْلَمَ عَبْدي واسْتَسْلَمَ» [رواه الحاكم].

وعن أبي سعيد الخدري ﷺ ، عن النبي ﷺ أنه قال: «قالَ مُوسى: يا رب علِّمْني شَيئًا أذْكُرُك بِه، وأدْعُوكَ بِهِ، قال: يا مُوسَى، قُلْ: لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ، قال: يا ربِّ، كلُّ عِبادِك يقولُ هذا، قال: قل: لا إله إلا الله، قال: إنَّما أُرِيدُ شيئًا تَخُصُّنِي بِهِ، قال: يا مُوسَى، لو أنَّ أهلَ السماواتِ والأراضِينَ السَّبعِ في كِفَّةٍ، ولا إله إلا الله في كِفَّةٍ، مالَتْ بِهنّ لا إله إلا الله» [رواه النسائي في عمل اليوم والليلة، وابن حبان في صحيحه واللفظ له].

وعن عائشة- رضي الله عنها- قالت: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّهُ خُلِقَ كُلُّ إِنْسَانٍ مِنْ بَنِي آدَمَ عَلَى سِتِّينَ وَثَلاثِ مِائَةِ مَفْصِلٍ، فَمَنْ كَبَّرَ اللهَ، وَحَمِدَ اللهَ، وَهَلَّلَ اللهَ، وَسَبَّحَ اللهَ، وَاسْتَغْفَرَ اللهَ، وَعَزَلَ حَجَرًا عَنْ طَرِيقِ النَّاسِ أَوْ

شَوْكَةً أَوْ عَظْمًا عَنْ طَرِيقِ النَّاسِ، وَأَمَرَ بِمَعْرُوفٍ، أَوْ نَهَى عَنْ مُنْكَرٍ عَدَدَ تِلْكَ السِّتِّينَ وَالثَّلاثِ مِائَةِ السُّلامَى، فَإِنَّهُ يَمْشِي يَوْمَئِذٍ وَقَدْ زَحْزَحَ نَفْسَهُ عَنْ النَّارِ» [رواه مسلم].

وقال ﷺ: **«مَنْ لَزِمَ الاسْتِغْفَارَ جَعَلَ اللهُ لَهُ مِنْ كُلِّ ضِيقٍ مَخْرَجًا، وَمِنْ كُلِّ هَمٍّ فَرَجًا، وَرَزَقَهُ مِنْ حَيثُ لاَ يَحْتَسِبُ»** [رواه أبو داود].

وعن شدّاد بن أوس ﷺ، عن النبي ﷺقال: **«اللَّهُمَّ أَنْتَ رَبِّي لاَ إِلهَ إِلاَّ أَنْتَ، خَلَقْتَنِي وَأَنَا عَبْدُكَ، وَأَنَا عَلَى عَهْدِكَ وَوَعْدِكَ مَا اسْتَطَعْتُ، أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا صَنَعْتُ، أَبُوءُ لَكَ بِنِعْمَتِكَ عَلَيَّ، وأَبُوءُ بِذَنْبِي، فَاغْفِرْ لِي، فَإِنَّهُ لاَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ أَنْتَ. مَنْ قَالَهَا مِنَ النَّهَارِ مُوقِنًا بِهَا، فَمَاتَ مِنْ يَوْمِهِ قَبْلَ أَنْ يُمْسِي، فَهُوَ مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ، وَمَنْ قَالَهَا مِنَ اللَّيْلِ وَهُوَ مُوقِنٌ بِهَا، فَمَاتَ قَبْلَ أَنْ يُصْبِحَ، فَهُوَ مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ»** [رواه البخاري].

وسئل أحد العلماء: أيهما أنفع للعبد: التسبيح أم الاستغفار؟ فقال: إذا كان الثوب نقيًّا، فالبخور وماء الورد أنفع له، وإن كان دنسًا فالصابون والماء الحار أنفع له، ثم قال: كيف والثياب لا تزال دنسة؟

وإن كان المسلم لن يناله من مجالس الذكر سوى أن يجلس في حضرة الذاكرين، فيكفيه، ففي الحديث القدسي الذي رواه أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال حاكيًا قول الله ﷻ في حال الذاكرين في مجالس الذكر: **«أُشْهِدُكُمْ أَنِّي قَدْ غَفَرْتُ لَهُمْ، قَالَ: يَقُولُ مَلَكٌ مِنَ الْمَلاَئِكَةِ: فِيهِمْ فُلاَنٌ لَيْسَ مِنْهُمْ، إِنَّمَا جَاءَ لِحَاجَةٍ، قَالَ اللهُ: هُمُ الْجُلَسَاءُ لاَ يَشْقَى بِهِمْ جَلِيسُهُمْ»** [متفق عليه].

٩ - صدقة الفطر

لقد كان رسول الله ﷺ جوادًا، وكان أجود ما يكون في رمضان، بل كان في جوده كالريح المرسلة، ولقد صفت النفس وسمت فوق رغبات الدنيا، وفوق الشح المقيت، وتطهرت وتحلت بأسمى الأخلاق، ومن هذه الأخلاق الرغبة في العطاء، والرغبة في إسعاد الآخرين، وإلا فهل تقبل نفسك أن تسعد أنت وأولادك بما لذَّ وطاب من الطعام، ولبس الجديد يوم العيد، وجارك جائع حائر لا ينام. من أين سيأتي لأولاده بالجديد؟ وكيف يقضي تلك الأيام الصعبة؟

إن النفس الطاهرة تأبى ذلك، ولا تسعد إلا بإسعاد الغير، ولا ترضى بأقل من ذلك، وقد شارف الشهر على نهايته، فهل نسيت صدقة الفطر؟

إياك أن تفعل، فما هي مجرد صدقة، إنها فريضة الله ﷻ على عباده جميعًا: الغني والفقير- حتى وإن كان من آخذي الصدقات، فيعطي من فائضها- والكبير والصغير- فلو ولد طفل قبل صلاة العيد وجب على وليه إخراج صدقة الفطر عنه ذكرًا كان أو أنثى- وقد روى عبد الله بن عمر- رضي الله عنهما- أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ «**فَرَضَ زَكَاةَ الْفِطْرِ مِنْ رَمَضَانَ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ مِنْ الْمُسْلِمِينَ حُرٍّ أَوْ عَبْدٍ، أَوْ رَجُلٍ أَوْ امْرَأَةٍ، صَغِيرٍ أَوْ كَبِيرٍ، صَاعًا مِنْ تَمْرٍ، أَوْ صَاعًا مِنْ شَعِيرٍ**» [رواه مسلم].

وهي زكاة وتطهير للصائم مما وقع منه من اللغو والرفث، ولتكون عونًا للفقراء على كفايتهم يوم العيد، فعن عبد الله بن عباس- رضي الله

عنهما- قال: «فَرَضَ رَسُولُ اللهِ ﷺ زَكَاةَ الْفِطْرِ طُهْرَةً لِلصَّائِمِ مِنْ اللَّغْوِ وَالرَّفَثِ، وَطُعْمَةً لِلْمَسَاكِينِ، مَنْ أَدَّاهَا قَبْلَ الصَّلاةِ فَهِيَ زَكَاةٌ مَقْبُولَةٌ، وَمَنْ أَدَّاهَا بَعْدَ الصَّلاةِ فَهِيَ صَدَقَةٌ مِنْ الصَّدَقَاتِ» [رواه أبو داود وابن ماجة بسند حسن].

وصدقة الفطر ليس لها إلا مصرف واحد، وهم الفقراء، كما في حديث ابن عباس- رضي الله عنهما- قال: «فَرَضَ رَسُولُ اللهِ ﷺ زَكَاةَ الْفِطْرِ طُهْرَةً لِلصَّائِمِ مِنْ اللَّغْوِ وَالرَّفَثِ، وَطُعْمَةً لِلْمَسَاكِينِ» [رواه أبوداود وابن ماجة].

وتجب بطلوع فجر يوم عيد الفطر عند الحنفية؛ لأنها قربة تتعلق بيوم الفطر، فلا تتقدم عليه كالأضحية، فإنها لا تتقدم على عيد الأضحى، ويستحب إخراجها قبل صلاة العيد، ويكره تأخيرها بعد الصلاة، وقال ابن حزم: يحرم تأخيرها بعد الصلاة، ومن أداها بعد الصلاة فهي صدقة.

وقال ابن عمر- رضي الله عنهما: «أَمَرَنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ بِزَكَاةِ الْفِطْرِ أَنْ تُؤَدَّى قَبْلَ خُرُوجِ النَّاسِ إِلَى الصَّلاةِ» [رواه أبو داود]. قال نافع: وكان ابن عمر يؤديها قبل ذلك باليوم واليومين.

وقال البخاري: وكان ابن عمر يعطيها الذين يقبلونها، وكانوا يعطونها قبل الفطر بيوم أو يومين، وهذا مما لا يخفى على النبي ﷺ، بل لا بد من كونه بإذن سابق، فإن الإسقاط قبل الوجوب مما لا يعقل، فلم يكونوا يقدمون عليه إلا بسمع (أي بسماع من صاحب الشرع، وهو الرسول ﷺ).

وجوّز أبو حنيفة وأصحابه إخراج قيمة الصاع من القمح أو الشعير أو

التمر ونحوه نقودًا إذا كانت النقود أنفع للفقير، ولم يجوِّز إخراج القيمة الأئمة الثلاثة. والأولى ما ذهب إليه أبو حنيفة وأصحابه؛ لأن الغرض من الزكاة هو رعاية مصلحة الفقير، وسد حاجته، فإذا كانت مصلحته في النقود كان إخراج النقود أولى.

***

١٠ - الليلة الأخيرة

لعلكم تتـــقون

انقضى شهر رمضان، شهر الصيام والقيام، شهر أقبلت فيه أنفس بجدٍ واجتهاد على العبادة والتقرب إلى الله بأنواع الطاعات، وشتى القربات، الشهر الذي جعل الله فيه الصيام لحكمة ذكرها ﷻ فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٨٣].

فهل تحقق معنى التقوى في القلوب؟ أم أنه أيام انقضت وأدينا فيها ما أدينا ثم نعود لما كنا عليه من سالف أيامنا قبل رمضان؟ إذا أردت أن تعرف فانظر إلى حالك بعد رمضان، هل أنت من الثابتين؟ هل ضاع منك فجر يوم العيد وما بعده؟ هل هجرت كتاب الله؟ إن كنت كذلك فأنت من عباد رمضان، وقد انقضى رمضان وذهب إلهك.

أما إن كنت عابدًا لله، فالله في كل الشهور، وفي كل الأوقات، وهو ربها وخالقها، فلمَ تهجره بعد رمضان؟ أم أنك صرت من الواثقين من

قبول أعمالهم، وركنوا إليها.. لقد كان السلف الصالح يجتهدون في إكمال العمل وإتمامه وإتقانه، ثم يهتمون بالقبول، ويخافون من رده: ﴿**وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ**﴾ [المؤمنون: ٦٠]، فعن عائشة- رضي الله عنها- أنها قالت: يا رسول الله، «وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ» أهو الرجل يزني ويشرب الخمر؟ فقال ﷺ: « **لاَ يَا ابْنَةَ الصِّدِّيقِ، ولَكِنَّه الرَّجلُ يَصومُ ويَتَصدَّقُ ويَخافُ ألاَّ يُقْبَلَ منه**» [رواه البيهقي في شعب الإيمان].

وعن الحسن قال: «وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ» قال: يعملون ما عملوا من أعمال البر وهم يخافون ألا ينجيهم ذلك من عذاب ربهم.

وقال الحسن أيضًا: إن المؤمن جمع إحسانًا وشفقة، وإن المنافق جمع إساءة وأمنًا، ثم تلا الحسن: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ۞ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ۞ وَالَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ۞ وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ**﴾ [المؤمنون: ٥٧-٦٠]، وقال المنافق: ﴿**قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِندِي**﴾ [القصص: ٧٨].

وحكى ابن جرير قول سعيد بن جبير: «وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ» يفعلون ما يفعلون وهم يعلمون أنهم صائرون إلى الموت، وهي من المبشرات.

أي أنها علامة القبول للأعمال الصالحات، فالخوف والوجل من أن

يرد العمل دليلٌ على حقيقة إيمان العبد بوعد الله ووعيده، وهي أيضًا أعمال صالحة يُثاب عليها العبد كما يثاب على أعمال الجوارح، والخوف والوجل عندما تأتي بعد عمل صالح تكون من باب إلحاق العمل الصالح بعمل صالح آخر، وهي علامة أخرى على قبول العمل.

فيا أهل الصيام، تذكروا أنكم إلى ربكم راجعون، ويا أهل القيام تأملوا! هل بلغ بكم من الخوف والوجل بعد رمضان ما يجعلكم من أولئك الذين يسارعون في الخيرات وهم لها سابقون؟ ومواصلة العبادة بعد رمضان؟ والدوام على القيام والصيام والصدقة والذكر وقراءة القرآن

بعد انقضاء شهر رمضان، شهر القرآن، وشهر الغفران والعتق من النيران. ماذا عن الخوف من أن ترد الأعمال على صاحبها. هل تحقق الخوف والوجل الدافع لدوام العمل؟.

بعد ذلك تأمل قول علي بن أبي طالب ﷺ: كونوا لقبول العمل أشد اهتمامًا من العمل، ألم تسمعوا قول الله ﷻ: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة: ٢٧]؟

سئل الإمام أحمد عن معنى المتقين في هذه الآية فقال: يتقي الأشياء فلا يقع فيما لا يحل له.

وورد في الآية آثار كثيرة عن سلفنا الصالح، منها ما جاء عن أبي الدرداء ﷺ قال: لأن أستيقن أن الله تقبل مني صلاةً واحدةً أحب إليّ من الدنيا وما فيها، إن الله يقول: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾.

وقال علي ﷺ: لا يَقِلّ عمل مع تقوى، وكيف يَقِلّ ما يُتقبل؟!

كتب عمر بن عبد العزيز إلى رجل: أوصيك بتقوى الله الذي لا يقبل غيرها، ولا غيرها، ولا يرحم إلا عليها، ولا يثيب إلا عليها، فإن الواعظين بها كثير، والعاملين بها قليل.

سئل موسى بن أعين عن قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ فقال: تنزهوا عن أشياء من الحلال مخافة أن يقعوا في الحرام، فسماهم متقين.

دخل سائل على ابن عمر- رضي الله عنهما- فقال لابنه: أعطه دينارًا. فأعطاه، فلما انصرف قال ابنه: تقبل الله منك يا أبتاه. فقال: لو علمت أن الله تقبل مني سجدةً واحدةً، أو صدقة درهم لم يكن غائب أحب إلي من الموت. تدري ممن يتقبل الله: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾.

وروى ابن جرير، عن عامر بن عبد الله العنبري، أنه حين حضرته الوفاة بكى، فقيل له: ما يبكيك فقد كنت وكنت؟ فقال: يبكيني أني أسمع الله يقول: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾.

فمن منا أشغله هذا الهاجس!! قبول العمل أو رده في هذه الأيام؟ ومن منا لهج لسانه بالدعاء أن يتقبل الله منه رمضان؟

فلقد كان السلف الصالح يدعون الله ستة أشهر أن يبلغهم شهر رمضان، ثم يدعون الله ستة أشهر أن يتقبل منهم.. لقد حان وقت الرحيل، وحمل رمضان أمتعته وخيراته وبركاته، ورحل عنا في تلك الليلة، وربما يكون إلى غير عودة بالنسبة لنا. فيا ترى ماذا ترك لنا القبول والرضا؟ أم الخسران والمعاصي؟

نسأل الله أن يتقبله منا، ويجعلنا من عباده المتقين، وألا يطلع علينا فجر يوم العيد إلا وقد غفر لنا، فإن كنا غير جديرين بالمغفرة، فهو جدير بالعفو، وهو أهل ذلك، والحمد لله رب العالمين.

***

العيد السعيد

الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر، ولله الحمد، الحمد لله كثيرًا، وسبحان الله بكرة وأصيلاً، لا إله إلا الله.

هتاف رائع تتغنى به الدنيا جميعًا يوم العيد، بعد أن أدَّى الجميع ما عليهم فرحة بالعمل، وفرحة بالقبول إن شاء الله، وفرحة بالفطر، وفرحة بالتطهر، وفرحة بقرار التوبة النصوح، ولزوم باب الله، وفرحة بإدخال السرور على المحتاجين، بتوزيع صدقة الفطر، سعادة غامرة تملأ القلب الذي طهر بنور الله في شهره الكريم، والذي عاش أفضل ما يكون المؤمن، وقرر أن يستمر بعدها في رحاب الله، فرحة بمولود جديد اسمه المسلم الجديد، الذي قرر أن يغير العالم، وأن يحمل رسالة النور الذي رآه إلى رحاب الدنيا كلها، وأن يكون على نهج المصطفى ﷺ وصحابته الذين لم يدفن منهم في أرض رسول الله ﷺ سوى عشرين ألف صحابي فقط، وأكثر من مائة ألف صحابي انطلقوا في رحاب الدنيا ينشرون كلمة الله، حاملين الخير للعالم كله، مصلحين غير مفسدين، منشدين مع منظومة الكون الكبرى: الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر.

تخلينا وتحلينا وتجلينا مع الله ﷻ، وفي رحاب المصطفي ﷺ، وها نحن يوم العيد بعد أن لبسنا ثوب التقوى، فكان العيد سعيدًا.. نذهب إلى ساحات الصلاة بعد أن أدينا صلاة الفجر في موعدها، وبعد أن أحيينا ليلة العيد.

ذكر الإمام أبو حامد الغزالي في كتابه «الوسيط في فقه الشافعية» سنن العيد، فذكر منها: إحياء ليلته بالعبادة. واستدل على ذلك بقول النبي ﷺ: «**مَنْ أَحْيَا لَيلةَ العِيدِ لمْ يمتْ قَلبُه يومَ تموتُ القُلوبُ**».

قال ابن الصلاح: إحياء ليلتي العيد جاء فيه ما ذكر، لكن نقله الشافعي موقوفًا على أبي الدرداء ﷺ، ولفظه: «**مَنْ قَامَ لَيْلَتَيْ الْعِيدَيْنِ مُحْتَسِبًا للهِ لَمْ يَمُتْ قَلْبُهُ يَوْمَ تَمُوتُ الْقُلُوبُ**» [رواه ابن ماجة]، قال الإمام الشافعي– رحمه الله: «وبلغنا أنه كان يقال: الدعاء يستجاب في خمس ليال: في ليلة الجمعة، وليلة الأضحى، وليلة الفطر، وأول ليلة من رجب، وليلة النصف من شعبان».

والحديث يحث على قيام ليلتي العيد في طاعة الله ﷻ وشكره، والثناء عليه وتعظيمه. ويحصل هذا الثواب لمن أحيا بعض هاتين الليلتين، أو معظمهما، وقد خصَّ من يحيي هاتين الليلتين بهذه الصفة العظيمة، وهذا الأجر الجزيل، بحيث يظل قلبه حيًّا بينما تموت كثير من القلوب؛ لأنه أحيا هاتين الليلتين في طاعة، بينما غفل غيره عن ذلك، أو أحياهما فيما يغضب الله أو يسخطه.

وذلك لأن المؤمن لا ينسى الله ﷻ في أي وقت، وأنه إنما يفرح بفضل

الله تعالى ورحمته، ويسعد بإتمام نعمة الله عليه، وتوفيقه إياه لما يرضى، قال الله تعالى: ﴿**قُلْ بِفَضْلِ اللهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ**﴾ [يونس: ٥٨]، وقال النبي ﷺ: «**لِلصَّائِمِ فَرْحَتَانِ فَرْحَةٌ عِنْدَ فِطْرِهِ وَفَرْحَةٌ عِنْدَ لِقَاءِ رَبِّهِ**» [رواه مسلم].

فلنذهب إلى الصلاة بتلك الروح الطيبة، نذهب من طريق، ونعود من طريق؛ حتى نلتقي بكل من لم نُلاقِه حين الذهاب، ونصافح جميع من يلاقينا من المسلمين؛ لتتساقط الذنوب من بين أيدينا، وتتصافى القلوب حتى ترفع الأعمال، ولنبدأ حياة جديدة ملؤها العمل الجاد، والروح الوثابة، فقد لا يعود علينا رمضان آخر، فنلقى الله وقد وفينا.

نسأل الله ﷻ أن يعيده علينا أعوامًا كثيرة، ويجعل كل أيامنا طاعات وبركات وقربى، وأن يعيد الأمة الإسلامية إلى مكانها في مقدمة الأمم، وأن يستعملنا في دينه ولا يستبدلنا، إنه على ذلك قدير.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

والله أكبر، ولله الحمد، والله أكبر، والنصر للإسلام.

***

الفهرس

مقدمة ٣
إنه الرمضان الأخير ٥
ليلة الأول من رمضان : لزوم التوبة والاستغفار ٩
١ – الخصومة ١٢
٢ – إفشاء السر والوعد الكاذب . ١٤
٣ – الكلام فيما لا يعنيك ١٧
٤ – الحسد ١٨
٥ – الكبر ٢١
٦ – الغضب ٢٤
٧ – الغيبة ٢٦
٨ – النميمة ٢٨
٩ – الشح ٣٠
١٠ – الفحش والسب وبذاءة اللسان واللعن ٣٢
الثلث الثاني من رمضان ٣٤
١ – بر الوالدين ٣٤
٢ – صلة الأرحام ٣٨
٣ – الإحسان إلى الجار ٤٠
٤ – الصدق ٤٤
٥ – الصبر ٤٦
استراحة: يوم في حياة صائم ٥٠
٦ – الشكر ٥٧
٧ – المراقبة ٦٠
٨ – الخوف والرجاء ٦٤
٩ – التواضع ٦٨
١٠ – الإخلاص ٧١
استراحة: يا أهلنا فكوا الحصار ... ٧٥
وها قد أقبل الثلث الأخير من رمضان ٧٦
١ – الاعتكاف ٧٨
٢ – في رحاب الصلاة ٨١
٣ – القرآن ٨٧
٤ – ليلة القدر ٩٢
٥ – ذكر الموت وقصر الأمل ٩٧
٦ – المحبة ١٠٢
٧ – التفكر في خلق الله ١٠٩
٨ – الذكر ١١٤
٩ – صدقة الفطر ١١٩
١٠ – الليلة الأخيرة: لعلكم تتقون ... ١٢١
العيد السعيد ١٢٥

***